أزمــــة الإنســــانيــــة

ودور القــرآن الكريم فى الخـلاص منهـا

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـ يناير ٢٠٠٦ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >

دراسات قرآنية

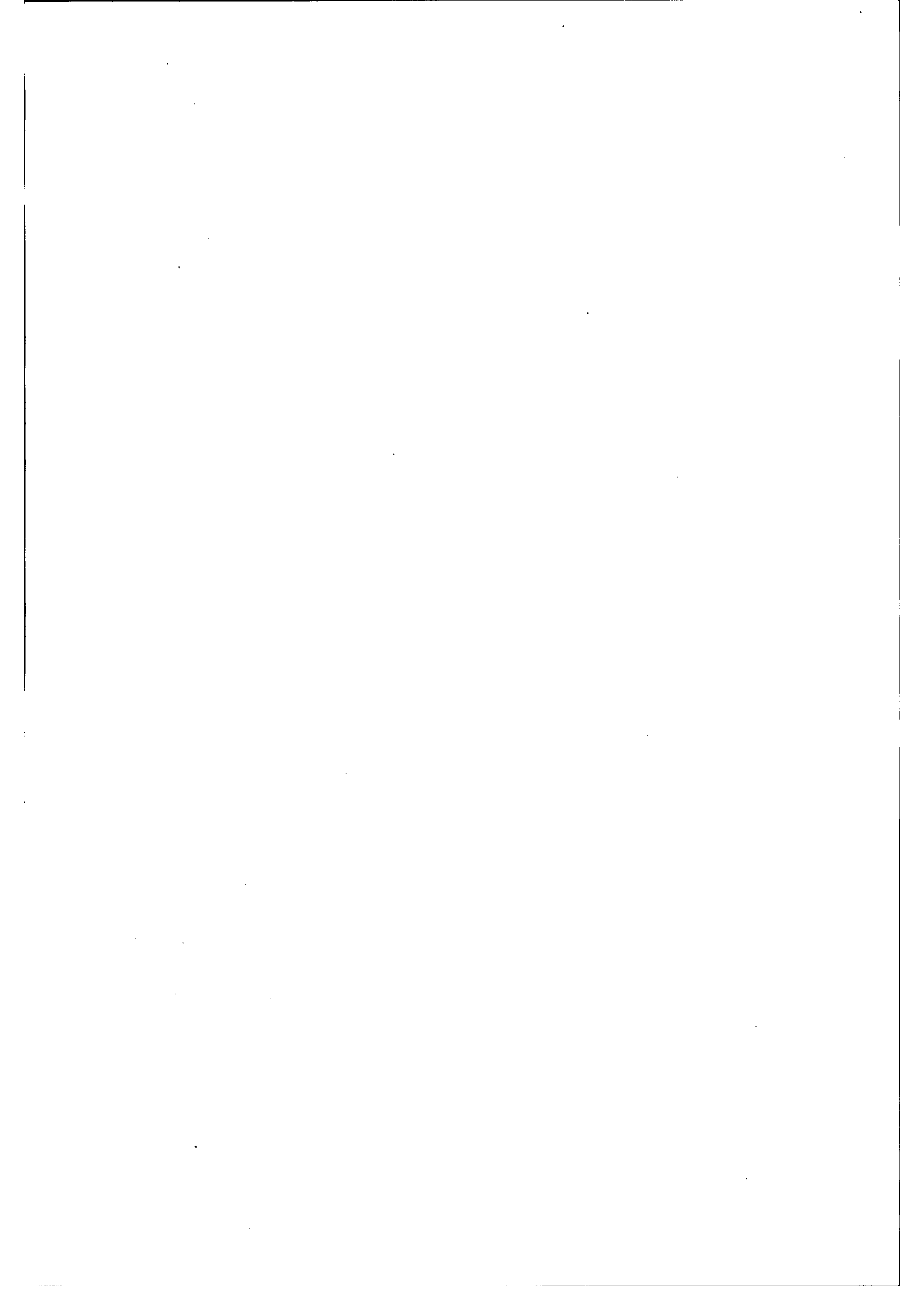
(١)

أزمة الإنسانية

ودور القرآن الكريم فى الخلاص منها

د. طه جابر العلوانى





المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين. نستغفره، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.

ونصلّي ونسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنّ «علوم القرآن» من أجلِّ وأشرف علومنا الإسلاميَّة - التى أسَّسها علماؤنا وأئمتنا وبنوا مبادئها ومسائلها عبر القرون؛ لتكون وسائل تعين «الأمَّةِ المسلمة» على استجلاء معانى القرآن، وتلاوته حق التلاوة، وفهمه وتدبُّره، وصياغة حياتهم به، وإقامة مجتمعاتهم على بيِّنة ونور منه. والقرآن كتاب الله - تعالى - وكلامه لا تنقضى عجائبه، ولا ينضب معين معانيه ودلالاته. وقد أنزله الله على خاتم النبيِّين ليقوم بعد ختم النبوات به مقام الأنبياء والمرسلين؛ فهو الكافى والشافى والمغنى عن تتابع النبوّات، وتتالى الرسالات. وعلوم خدمة ذلك الكتاب المعجز لا يمكن

أن تقف عند جهود جيل واحد من أجيال الأمَّة أو قرونها ؛ لأنّ هناك وسائل غير ثابتة ، وفى دائرة تلك الوسائل المتجددة تتنافس الأجيال بحيث يكون لكل جيل نصيب من شرف خدمة القرآن ، وسبيل للانضمام إلى حملة لواء القرآن .

وإعادة صياغة «علوم القرآن» ، وتقديمها لأجيالنا الواعدة بأسلوب يلائم مداركها ، ويناسب قدراتها ، أمر فى غاية الأهميَّة فى عصرنا الحاضر . ولا يجيد القيام به إلاّ من أخذ من علوم القرآن وعلوم المقاصد والوسائل الإسلاميَّة بنصيب وافر . وأخذ ـ كذلك ـ من معارف العصر ، والتيّارات والتوجهات البارزة فيه بمثله .

والأخ العزيز الأستاذ الدكتور طه جابر العلوانى واحد من أولئك القلائل الذين جمعوا بين الدراسات الشرعيَّة حيث نال جميع شهاداته الدراسيَّة فى الأزهر الشريف من الثانويّة ـ إلى الدكتوراه . ثم مارس التدريس فى كثير من الجامعات العربيّة والإسلاميَّة ، وأخيرًا استقر به المقام فى الولايات المتحدة الأمريكيّة وتولى فيها عددًا من المناصب الأكاديميَّة التى أتاحت له فرصة الاحتكاك بجوانب كثيرة من الوسائل التى يعرض فيها الإسلام والقرآن ـ بخاصَّة ـ فى أقسام الدراسات الإسلاميَّة فى كبريات الجامعات الأمريكيَّة .

فحين يكتب فى هذه العلوم فإنَّه يعالجها ، والبعد العالمىّ للقرآن ورسالة القرآن وخطابه حاضر فى ذهنه ـ فتكون معالجته جامعة يحتاج إليها الباحث المسلم ولا يستغنى عنها الباحث الغربى .

وقد أطلعنى ـ حفظه الله ـ على كثير من حلقات هذه السلسلة المباركة فسعدت بقراءتها وأبديت ملاحظات يسيرة على بعض ما ورد فيها، سارع ـ وفقه الله ـ إلى الأخذ بأهمها بتواضع العالم وإخلاصه.

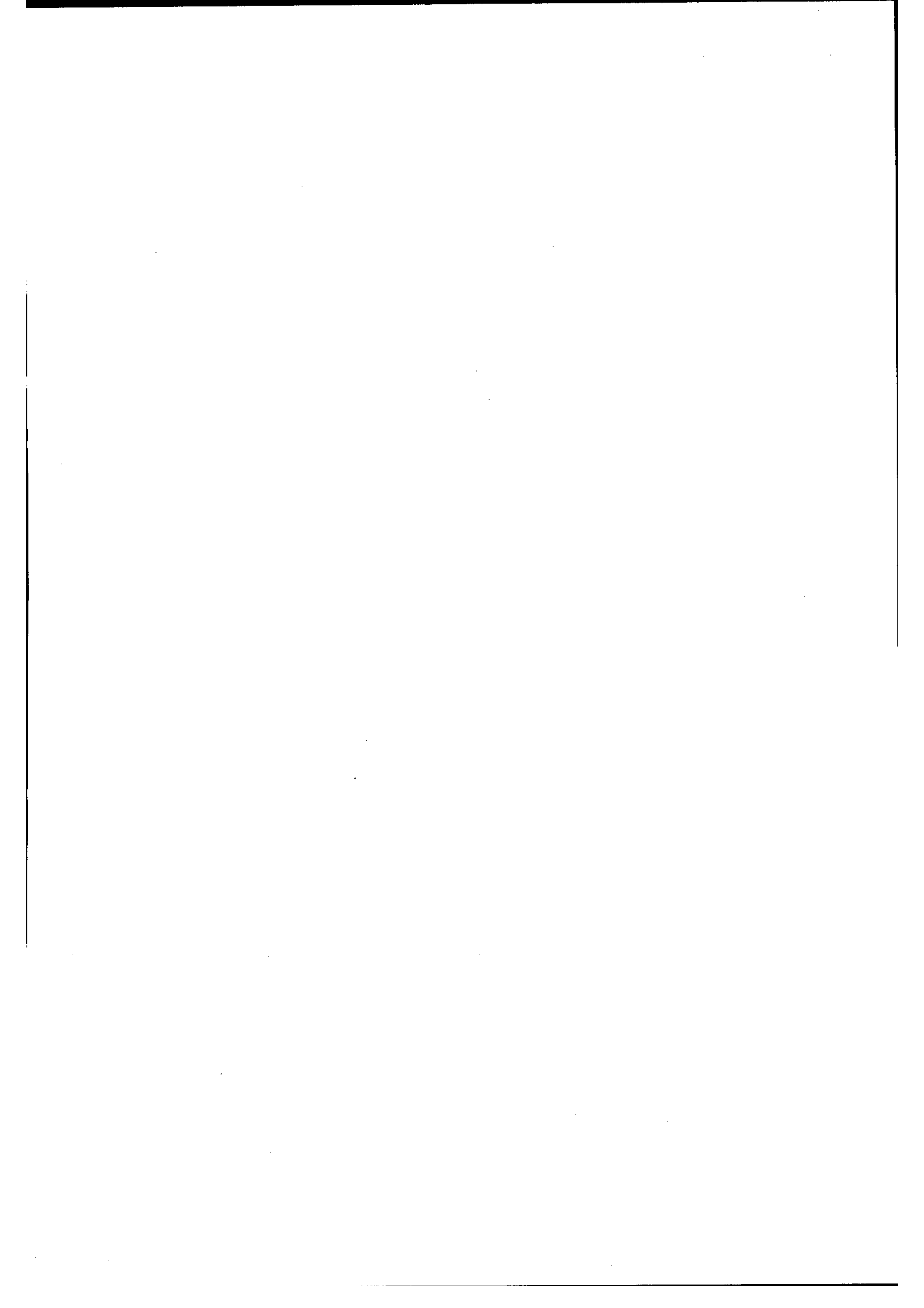
ونصيحتى للشباب المسلم وللباحثين فى علوم القرآن أن يدرسوا ـ بالعناية اللازمة ـ حلقات هذه السلسلة ويتواصلوا معها. ومع مؤلفها الفاضل.

كما أوصى «رابطة الجامعات الإسلاميَّة» أن تعمل على إذاعتها بين الجامعات الإسلاميَّة، وترجمتها إلى لغات الشعوب الإسلاميَّة المتداولة، لتعميم فائدتها.

أسأل الله ـ تعالى ـ أن يجزى الأخ د. طه جابر العلوانى خير الجزاء، ويحشره تحت لواء القرآن، ويمن عليه بالعفو والعافية، ويفتح عليه فتوح العارفين ليواصل البحث والإنتاج فى هذه المجالات التى تشتد حاجة الأمَّة إليها. إنه سميع مجيب.

أ. د. على جمعة عبد الوهاب

مفتى جمهورية مصر العربية



مقدمة السلسلة

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه ونصلى ونسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأتباعه الغر الميامين، وحملة الرسالة من بعده، والداعين إلى سبيله وهديه إلى يوم الدين.
وبعد:

فإنَّنى ما اعتدت أن أحتفى بما أكتب، أو أمنحه كبير اهتمام، أو أسعى لنشره، والترويج له؛ إذ يكفينى من ذلك أن ألقى الله - تبارك وتعالى - وقد أجريت قلمى بما فيه نفع لعباده، ثم هم - بعد ذلك - بالخيار إن شاءوا اهتموا بذلك الذى كتب، وإن شاءوا أهملوه. وكل ما أرجوه أن يتقبَّله الله - جل شأنه - منّى، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويجعل ما قلت أو كتبت قولا سديدًا، وما قد يشتمل عليه من فكر رأيًا رشيدًا، واجتهادًا مصيبًا، فإن كان كذلك فله الحمد والمنّة، فهو سبحانه الذى علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذى خلق الإنسان وعلمّه البيان.

وقد قيّض الله - تبارك وتعالى - إخوة أعزة داوموا على الاهتمام بما

أكتب فنشروا لى مجموعة من الكتب قاربت العشرين كتابًا، ولولا لطف التدبير الإلهىّ - الذى جعل أفئدة هؤلاء الإخوة تهوى بعض ما أكتب أو أحاضر - لما أمكن نشر شىء من ذلك. فإننّى مع كثرة المؤسسات التى انتسبت إليها، والهيئات التى تشرفت برئاستها أو عضويَّتها، والمجلات التى قدّر لى الاتصال بها - حين أفكر فى النشر أشعر بتهيُّب كبير، وتردُّد وفير، خشية أن يكون ما أعتزم نشره لم يستوف حقه من العناية، أو أنَّه قد يكون قليل النفع للقارئين، أو أنَّه غير مناسب للوقت ولكن الله - تعالى - قد قيّض لى فيمن قيضهم من الإخوة الأحبة الأخ الأستاذ محيى الدين عطية الذى كان كثير التشجيع لى على الكتابة - حين سعدت بصحبته فى أمريكا وفى مصر - وعلى النشر، وإتاحة ذلك للقارئين، وكثيراً ما كان يقرأ ما أكتب ويراجعه ويعيننى بملاحظات قيّمة تسدّد وترشّد. وكذلك الصديق العزيز حجة الإسلام الأخ الشيخ عبد الجبار الرفاعى - أحد تلامذة الشهيد الصدر، وأحد أساتذة الحوزة الكرام - الذى أبدى اهتمامًا كبيراً بما أنتج، وحملنى على الاقتناع بأهميته وضرورة إتاحته للقراء وإعطائهم فرصة الاطلاع عليه، ثم لهم - بعد ذلك - أن يحكموا له أو عليه. وقد يكون ذلك مساعداً على التصحيح والمراجعة، وإعادة النظر فى ضوء ملاحظات القرّاء، وطرائقهم فى تقييم ما يطلعون عليه. ولم يقتصر كرمه على ذلك فقط، بل أخذ - جزاه الله عنِّى خير الجزاء - على عاتقه برغم انشغالاته الكثيرة إعداد كثير من إنتاجى سواء أكان بحوثًا أو مقدَّمات كتب أو محاضرات ووضعها فى

شكل كتب تحمل مواصفات الكتب من حيث التناسب والتناسق، ووحدة الموضوع والتصنيف والتصحيح والفهرسة.

وبذلك أزال مخاوفي وترددي، فخولته - جزاه الله خيراً - بذلك. فبادر بنشر مجموعة من إنتاجي بكتب ما كان لها أن تظهر لولا توفيق الله - تعالى - ثم جهده وتشجيعه. وقد بدأت الثقة بما أكتب - بفضل الله - تقوى عندي كلما رأيت كتاباً جديداً يصدره إخواني، وبخاصة أخي - حجة الإسلام - الرفاعي، وينال الرضا من القرّاء.

وهذه السلسلة التي أقدم لها في «علوم القرآن» أو في «الدراسات القرآنيَّة» قد اشتملت على محاولات كثيرة لتناول قضايا قرآنيَّة. كتبت في أوقات مختلفة لمقاربة «المنهج والمنهجية المعرفية القرآنيَّة». والرابط بينها وحدة موضوعها الأساسيّ، وهو - «علوم القرآن» من حيث علاقتها بالمنهج والمنهجيَّة - وإنّني لأرجو أن تساعد الباحثين في «علوم القرآن» على سلوك سبيل ممهّد إلى حد ما « نحو المنهجيَّة المعرفيّة القرآنيَّة». ومع كل ما بذلته من جهد فإنّني أرجو من القارئ الكريم ألا يبخل عليّ بملاحظاته ونقده ومقترحاته فإنّ الإنسان محل النسيان:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها كفى المرءَ نُبلا أن تُعدَّ معايبه

والشكر موصول لأخي العزيز المهندس عادل المعلم الذي قرّر أن يتعهد هذه السلسلة، ويخرجها بحلَّة قشيبة تليق بجلال القرآن وعظمته، وإبراز منهجيَّته المعرفيَّة. سائلاً العلي القدير أن يجزل ثوابه في الدارين، وألا يحرمني صادق مودته وإخائه. إنّه سميع مجيب.

كلمة لا بد منها

«المفبركان الباطل» لا «الفرقان الحق»[1]

فيما كنت أعد الحلقات الأولى من «الدراسات القرآنيّة» للنشر إذا بكتاب تافه متهالك لفقته مجموعة من «صنائع المرجفين» و«مأجورى الدَّجالين» فى بلاد المسلمين، لموالاة الضرب على أدمغتهم، وتدمير ثقتهم بالله ثم بدينهم، ومصادر هذا الدين، وبخاصة «المصدر المنشئ للدين والكاشف عنه» القرآن المجيد الكريم المكنون.

الكتاب التافه نعته المرجفون «بالفرقان الحق» زيادة فى التضليل، وإمعانًا فى الاستهتار بالإسلام والمسلمين، ومصادر الإسلام. ويبدو أن هؤلاء المرجفين قد غرّهم هذا الحال التعيس الذى يعيشه المسلمون، ويتخبطون فيه ـ اليوم ـ فسوَّل لهم طغيانهم وشياطينهم ودجاجلتهم، وصوروا لهم أنَّ الطريق للإجهاز على المسلمين وإنهاء أمتهم، وتدميرهم بضربة قاضية صار سالكا، وذلك باللَّغو فى مصدر بناء شخصيَّتهم الإسلاميَّة، وإقامة أمَّتهم، والتأليف بين قلوبهم، وتحقيق وحدتهم، وينبوع الهدى، ومصدر النور، وكتاب الحق والحقيقة، وحافظ رسالات النبيِّين كافة.

---

(١) نشرت جريدة «الأسبوع» القاهرية فى عددها رقم «٣٧٣» بتاريخ ٣/ ٥/ ٢٠٠٤م تقريراً مفصلاً عن هذا «المفبركان الباطل» ثم أعادت نشره فى عددها الأسبوعى «٤٠٣» بتاريخ السادس من ديسمبر ٢٠٠٤م. بقلم الأستاذ مصطفى بكرى. كما أن مجموعة «المفبركان» نشرت «بالإنترنت» أجزاء أعطى لكل مجموعة تخريفات وأباطيل منها اسم «سورة». هدم الله عليه أسوارهم، ودمر عليهم بنيانهم.

اعتداء على البشريّة كلها

وما درى المرجفون أنَّهم بذلك لا يضرون بالمسلمين وحدهم، بل يعتدون على البشريَّة كلِّها. وذلك لأنّ الدين الذى جاء به المرسلون ـ كافَّة ـ حفظه هذا الكتاب الذى يحمل فى سوره وآياته خلاص البشرية، ومنهج إنقاذها من تدمير الضالِّين ومؤامرات المستكبرين، الذين يريدون ليطفئوا نور الله، ويحرموا البشريَّة من الحصول على «دليل خلاص» وسبيل إنقاذ يكشف ظلم الظالمين. وعدوان الطغاة المتجبّرين، وأعداء الحياة لتخلو الساحة ـ بعد ذلك ـ لهم وللشياطين ـ لو نجحوا ـ خذلهم الله ـ للعبث بمقدَّرات البشريَّة، وإذلال شعوبها، وتدمير الحياة على الأرض، والقضاء على الإنسانيَّة. إنّهم لم يجدوا عدواً ليتخذوه عدواً غير القرآن الذى جعله الله كتابًا هاديًا منيراً مشرقًا، معادلا للكون وحركته مستوعبًا لسننه وقوانينه، مصدِّقا للأنبياء كافَّة، وحافظًا ومهيمنًا على كتبهم، ومجدِّدا لرسالاتهم، لم يجدوا غير هذا القرآن ـ نبيّا لا يمكن قتله، ورسولا مقيمًا تستحيل محاصرته وإبادته. لقد حرَّفوا التوراة من قبل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] ـ وجعلوا ما أنزل الله على موسى «قراطيس يخفونها» ويُبدون منها ما يناسب أهواءهم. وما أنزل الله إلا كتابًا واحدًا على موسى ـ عليه السلام ـ هو التوراة، لا كتبًا مختلفة متعددة متناقضة.

وحرَّفوا الإنجيل، واختلفت طوائفهم فيه فصار لكل طائفة منهم إنجيلها الخاص، وما أنزل الله إلا إنجيلا واحداً على قلب عيسى ابن مريم - عليه السلام - حرّفوه فحرموا أنواره.

وكيف يهتدون وقد ضلوا ؟ وإذ لم يجدوا لله بينهم كلمة صادقة ثابتة هداهم شيطانهم فعمدوا إلى القرآن المجيد لعلهم ينالون منه مثل ما نالوا من التوراة والإنجيل، فلمَ لا يحاولون، وبخاصة أن بمقدورهم - الآن - أن يستخدموا آخر ما بَلغته البشرية من وسائل تقنية لترويج باطلهم، ونشر تخريفاتهم وأضاليلهم؟!

القرآن حافظ رسالات الله كلها

لا شك فى أنهم قد اكتشفوا فى القرآن الدين كله : حنيفيَّة إبراهيم وصحف وتوراة موسى وألواحه، وإنجيل عيسى الصحيح الذى لم تمتد إليه يد التحريف لأن القرآن قد حفظه، وضمَّه إليه مثل ما ضم صحف إبراهيم وموسى ودعائم وأركان رسالات الأنبياء والمرسلين كافّة . إنَّ القرآن قد أحبط محاولات أجدادهم وأسلافهم فى تحريف التوراة والإنجيل حيث صدَّق القرآن عليها وهيمن ، وأعاد كتب وصحف الأنبياء صادقة كما أنزلت على أولئك المرسلين من عهد نوح مروراً برسالة إبراهيم وموسى وعيسى حتى محمد عليهم - جميعًا - الصلاة والسلام. فلم يعد لهم أى سبيل إلى تحريفها وقد صدَّق القرآن عليها وهيمن.

لقد ظن هؤلاء الأغبياء أنَّهم بفبركة ما فبركوا إنَّما يحاربون الإسلام والمسلمين - وحدهم - وما دروا أنَّهم بذلك إنَّما يحاربون الله ورسله كافَّة، فهم يحاربون بهذا نوحًا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وإسماعيل وموسى وعيسى وسائر النبيِّين ثم محمداً - عليهم جميعًا - أفضل الصلاة والتسليم، إنَّهم بذلك يزيدون في تحريف أديانهم، وحجب حقائقها عن شعوب الأرض، ويغلقون الطريق أمام البشريّة إلى الصحيح منها. فالقرآن هو المصدر الوحيد بين أيدى البشريّة - القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخيّ للأنبياء والرسل، وصحة الوجود التاريخيّ لأديانهم اليهوديَّة والنصرانيَّة - معًا - فالعلوم التي ابتكروها، وفنون النقد التي مارسوها جعلت اليهود والنصارى - وبخاصَّة علماء الأديان وتاريخها - يفقدون ثقتهم بالوجود التاريخيّ لتلك الأديان ورسلها وأنبيائها، ويتشككون فيها - كلها - وجعلت من تلك الأديان وكتبها ورسلها ميادين لتجريب سبل الهدم والنقد الهادم المدمر، لا النقد البنّاء، وبما اقترفوا جعلوا منها مجرد أساطير استقرت في ذاكرة وخيال الشعوب تجب المحافظة عليها بحسبانها جزءاً من « المكوِّن الثقافيّ الشعبيّ أو المخيال الثقافي» فصاروا يعيدون صياغتها وبناءها بحسب الظروف ومتطلَّباتها لتلبية الحاجات النفسيَّة لتلك الشعوب، فهي - عندهم - بمثابة الخمور والمسكرات التي قد يطلقون عليها «المشروبات الروحيّة» يوظِّفونها بالدرجات التي يريدونها، ويقرِّرونها لتشكِّل «أفيونًا للشعوب» يروج لها بعض الفاشلين من ساستهم ولا هوتيِّيهم.

حفظ الله القرآن وعصمته له

أما «القرآن» فشأنه مختلف. فهو كتاب الله - تعالى - الذى لم يدع أمر حفظه للبشر - مثل الكتب السابقة التى أوكل الرسل الذين أنزلت عليهم حفظها إلى الحواريّين والربّانيّين والأحبار فحرّفوها، وضيعوها: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]. ربما كانت حكمة الله - تعالى - فى ذلك إظهار خصوصيّتها - أعنى اختصاصها بشعوب أولئك الأنبياء، وتاريخانيّتها - أعنى اختصاصها بمرحلة تاريخيّة محدّدة، فيما هو غير دائم ومستمر من التشريعات والمعالجات، الخاصّة بتلك الشعوب فى تلك المراحل من عمر البشريّة.

إنّ القرآن المجيد قد حفظه الله بنفسه، وتكفل بدوامه وبقائه واستمراره إلى يوم الدين: يحمل خطابًا عالميًا، وشريعة تخفيف ورحمة عالميّة شاملة، وأوكل إليه الحاكميّة، وأودع فيه التصديق والهيمنة على ما سبق، وما يأتى به الناس إلى يوم الدين؛ ونسخ به كل ما أدخله المرجفون والمحرّفون على رسالات الأنبياء، وحفظه بنفسه، وحفظ به خلاصات وثوابت رسالات المرسلين: فقد حفظه من داخله بنظمه وبيانه وأسلوبه وإعجازه، وتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو ينالوا منه بتحريف أو تغيير. وحفظه من خارجه بتهيئة الملايين عبر العصور لحفظه فى الصدور

وتدوينه فى السطور، وتداوله صحيحًا نقيّا معصومًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فتناقلته الملايين جيلاً بعد جيل، محفوظًا فى الصدور، مدونًا فى السطور فلم يضع منه حرف واحد على مر الدهور.

وقد تعرض القرآن الكريم لمحاولات التحريف فلم تفلح، ولمحاولات الدس بإضافة كلمات أو حذف كلمات يتحول بمقتضاها الإيجاب إلى نفى والنفى إلى إيجاب فلم ينطل ذلك على عوام المسلمين فضلا عن قرّائهم وعلمائهم.

المحاولات الفاشلة للنيل من القرآن

وكذلك تعرض لعمليّات تحريف متقن مضلّل فى الطباعة ليبدو التحريف غير مقصود، وذلك بإعجام المهمل، أو إهمال المعجم، فلم يفلح ذلك بالمرور، أو الانطلاء على عامة المسلمين فضلاً عن قرّائهم وعلمائهم.

أما ترجمات معانيه للغات الأخرى فقد كانت ميدانًا واسعًا لتحريف معانى القرآن وتزييفها بنوايا سيئة، أو للعجز عن السمو إلى مستوى لسانه وبيانه.

وأما محاولات تقليد ظواهر لسانه، ومحاكاة تعبيراته فلم تتوقف عبر العصور، ولكنّها شكلت أسباب سخرية واحتقار لأصحاب تلك المحاولات أظهرت طفولتهم العقليّة، وهزيمتهم النفسيّة، وسفاهة

أحلامهم، وتفاهة محاولاتهم. وما قام به هؤلاء التوافه من تأليف «مفبركَانهم الباطل» لا يعدو أن يكون محاولة هزيلة تضاف إلى ملايين المحاولات السقيمة الفاشلة التى قام بها إخوان الشياطين عبر التاريخ، فما زادت المؤمنين بالقرآن إلا إيمانًا مع إيمانهم، وما زادت إخوان الشياطين إلا عمى وضلالاً وأحقادًا. وبقى القرآن شامخًا يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل أقصر سورة من سوره فلا يأتون بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

الفرضيّات الخاطئة

لقد بنى مؤلفو «المفبركان الباطل» ومن وراءهم من شياطين الإنس والجن «مفبركَانهم» على فرضيّة خاطئة متهافتة، خلاصتها: أنّ القرآن ـ فى نظرهم ـ لا يعدو أن يكون أسماء سور، وفواصل تنتهى بها الآيات، وبعد ذلك يستطيعون أن يدسُّوا بين البدايات والفواصل ما يشاءون من مضامين مقتبسة من الأسفار المنسوبة إلى موسى، والكتب المنسوبة إلى عيسى أو من مفترياتهم. فاستبدلوا بأسماء السور أسماء باطلة ـ ما أنزل الله بها من سلطان ـ زائفة خادعة اختاروها، وظنُّوا أنّهم بمجرّد أن يضيفوا كلمة «سورة» ستنجح الفبركة وسوف ينخدع القراء المسلمون بما افتروا وفبركوا وأنّ «الجرسَ» الذى فى الفاصلة سوف يجعل الفبركة أكثر إتقانًا، ثم هم بعد ذلك فى المضامين أحرار.

فجاءوا بمزيج عجيب لا تعرفه اليهوديَّة ولا النصرانيَّة، ولا الحنيفيَّة الإبراهيميَّة ولا الإسلام، ولا أى دين آخر إلا دين الشيطان الرجيم الذى ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[الحج: ٤]. ولو فرض أن أحدًا تأثَّر بهذا «المفبركان» فإنّه لن يجد لنفسه موقعًا فى أىّ مجموعة دينيّة من هذه المجموعات لأنه لن يكون يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا حنيفًا مسلمًا ولا شيئًا آخر إلا شيطانًا مريدًا أو واحدًا من أتباع الشيطان.

لقد ذكرنى شياطين «المفبركان» بواقعة حدثت لى مع إحدى حفيداتى حين كانت طفلة فى السادسة من عمرها. وكانت أمها تقرئها القرآن الكريم، فجعلتها تحفظ بعض السور ومنها «سورة النبأ» وبعد أن اطمأنت إلى حفظها السورة جاءت فرحة تدعونى لسماع السورة منها بلهجتها الطفوليَّة المحبَّبة فشرعت حفيدتى - ذات السنوات الست - تقرأ وأنا أستمع إليها فيما كنت أرتدى ملابسى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾[1] فارتج عليها، فبقيت تردِّد ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ولم يفتح عليها، وتعمدت أن أنتظر حتى تتذكر بنفسها، وإذا بها تقول: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ * جدى يلبس البنطلون فانفجرت ضاحكًا من قولها، وعجبت لتأثّر هذه الطفلة «بجرس الآيات» الذى جعلها تؤلِّف على الفور من واقع تشاهده عبارة تحمل ما يشبه الفواصل فى السورة: «يتساءلون * مختلفون * سيعلمون * فجاءت بتلك الجملة الغريبة المنتهية «بالواو والنون». إنّ

صنيع هذه الطفلة البريئة كان أكثر إتقانًا من صنيع رجال «الكهنوت» الذين فبركوا «المفبركان الباطل».

المفبركان الباطل لا ينتمى إلى أى دين

إنّ من يُقدَّر عليه تبنىّ ذلك «المفبركان الباطل» لن يبلغ مرتبة المشركين لو كان للشرك مرتبة، ولا وعى وخبرة قادة الجاهليِّين المشركين الذين أدركوا برغم كفرهم وشركهم وجاهليّتهم أن هذا القرآن ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾[يوسف: ١١١] وما كان صنع بشر فإنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر. فتوقفوا عن معارضته، وفضلوا على ذلك الحروب. وبذلك احترموا أنفسهم وعقول أشياعهم فلجئوا إلى التشويش عليه، والقول بأنّه ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[المدثر: ٢٤] و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢]، و﴿إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾[الفرقان: ٤]، و﴿أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾[الأنعام: ٢٥]، ليكسبوا الحرب النفسيَّة والثقافيَّة. فهذه الأقوال منهم - على تهافتها - وعدم إيمانهم بها، لكنّها أقوال قد ينخدع بها الجاهلون الذين يلاحظون آثار القرآن فى سامعيه فيتساءلون عن سر ذلك، فيقول لهم هؤلاء: ألا ترون«أنّه يفرِّق بين الأب وأبنائه، والأزواج وأزواجهم»؟ وذلك شأن السحر المتعارف عليه عندهم!

بعض محاولات أسلاف كذابى العصر

ولذلك لم يعارض القرآن عربىٌّ يحترم نفسه، ويحرص على ألا يتهم بالجهل بلغة قومه. والذين حاولوا لأمراض نفسيَّة ألمت بهم، أو جنون عظمة تملكهم، أو لغيرة وحسد هيمنا عليهم جاءوا بما يضحك الثكلى. فحين نزلت - على سبيل المثال - سورة «الفجر» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وبلغت آياتها المعجزة مسيلمة الكذاب: (بِسْمِ اللّه الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ - ٥]. . . السورة. قال الكذاب: «لقد أنزل على آنفا: «والحمام واليمام وقصور الشام . . . » وذلك لتوهّم الكذّاب أنّ إعجاز القرآن منحصر فى أسلوبه فإذا جاء بعبارات تُرصُّ بأسلوب معيَّن أو تُسجَع سجعًا يشبه - فى خياله المريض - أسلوب القرآن كما تفهمه قريحته السقيمة فذلك كاف فى إظهار المعارضة؛ ولذلك انطلق فى بعض معارضاته التخريفيَّة التى كان يدرك أنّها لن تتجاوز ولن تعدو أن تكون مجرَّد لغو فى هذا القرآن، ومحاولة تشويش على قارئيه وسامعيه، فادعى - أيضًا - أنّه قد أنزل عليه« . . . لقد من الله على الحبلى! أخرج منها نسمة تسعى! من بين صفاق وحَشى»! وأوحى إليه شيطانه يومًا بقوله: « . . . الفيل ما الفيل! وما أدراك ما الفيل! له ذنب ونبيل! وخرطوم طويل»! كما جادت قريحته يومًا بقوله: «يا ضفدع بنت ضفدعين! نقىّ ما تنقين! نصفك فى الماء

ونصفك فى الطين»! .كما توهّم النضر بن الحارث أن سرّ عظمة القرآن وتأثر الناس به ـ : يكمن فى قصصه التى تناولت مواقف تلك القرون من أنبيائهم ورسلهم، فراح بتحريض من مشركى قريش يتتبّع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ووفودها إلى البيت الحرام فى المواسم ليجلس إلى تلك الوفود التى كان رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ يجلس إليها، فيقص عليهم ما يعرف من أخبار فارس والروم، ويقول لهم: «ماذا ترون فى قصص محمد عليكم وقصصى؟ إنّ ما جاء به محمد لا يعدو أن يكون قصصًا وأساطير كالتى أقولها لكم!!بل إنّ ما أقصُّه عليكم أكثر متعة، وأقرب إلى زمانكم . . .»!!

هؤلاء البؤساء ـ جميعًا ـ خدعوا أنفسهم، وأوهموها بأنّ مصدر تفوُّق القرآن وتحدِّيه وإعجازه ـ هو وجه واحد، ذلك الذى حاولوا واهمين معارضته فيه ألا وهو السجع والقصص. وحتى هذه لم يدركوا حقائقها، ولم يرقوا لمستوى فهمها. ولو كان الأمر ـ كما توهموا ـ لما احتاج العرب إلى خوض المعارك والتضحية بالأموال والأبطال من صناديدهم فى حروبهم ضد الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ والقرآن؛ إذ كان يكفيهم أن يأتوا بسورة من مثله، وينتصروا عليه، ويثبتوا أنه قول بشر مثلهم.

تحدى القرآن

لقد تحدّى القرآن الخلق ـ كلّهم ـ أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثل سوره، بل نزل إلى حد تحدِّيهم أن يأتوا بسورة واحدة مماثلة لسوره. وتواتر التحدِّى، وتناقلته الأجيال، وتواتر عجز الذين تحدَّاهم. ولم يستطع الخلق أن يقيموا دليًلا واحدًا على عدم عجزهم، وما استطاعوا مع تعدُّد المحاولات وتكرارها أن يعارضوه، فعمدوا إلى الحروب والقتال، وبذل المهج والأرواح ونفيس المال، لإسكات رسول الله، ومنع نور القرآن من الظهور فهل أفلحوا؟!

يقول القاضى عياض فى كتابه الشفاء: «فلم يزل يقرّعهم النبى ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ أشد التقريع، ويوبِّخهم غاية التوبيخ، ويسفِّه أحلامهم، ويحط أعلامهم، وهم فى كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون عن مماثلته، يخادعون أنفسهم بالتكذيب والإغراء بالافتراء، وقولهم: «سحر يؤثر، وسحر مستمر، وإفك افتراه، وأساطير الأولين». وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] فما فعلوا ولا قدروا ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة الكذاب كشف عواره لجميعهم ـ كما ألمحنا ـ ولمّا سمع الوليد ابن المغيرة قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[النحل: ٩٠] قال: «والله إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّ أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر». ـ كما مر ـ وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيًا

سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾[الحجر: ٩٤] فسجد، فقيل له فى ذلك؟ فقال: «سجدت لفصاحته» وما أفصح وأبلغ هذه الكلمات الثلاث؛ إنَّها أمر بصياغة الخطاب الناجع المؤثّر الخالى من سائر عيوب الخطاب بحيث يتجاوز الأسماع إلى القلوب والبصائر والأفئدة. إنّ «إشكاليَّة الخطاب» باتت ـ اليوم ـ إشكاليَّة عالميَّة. وهذه الكلمات الثلاث تحمل للمتدبِّرين المعالجة السليمة لهذه الإشكاليَّة فى سائر مستوياتها، وأركانها من مخاطِب ومخاطَب ورسالة أو مضمون خطاب، وكيفيَّة تقديم ذلك الخطاب. وسمعَ آخر قارئا يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[يوسف: ٨٠] فقال: «أشهد أن لا مخلوق يقدر على مثل هذا الكلام». ولو استعرضنا ما ورد فى تأثير القرآن المجيد فى سامعيه لحررنا فى ذلك آلاف الصفحات!! ولا نريد أن ننقل ـ هنا ـ ما سنتناوله إن شاء الله فى الحلقة الخاصة «بالإعجاز» التى سوف نتناول فيها سائر التفاصيل التى تندرج فى ذلك الموضوع.

نظم القرآن حافظه الداخلىّ

إن «نظم القرآن» هو حافظه وحارسه الأمين من داخل. و«نظم القرآن» يقوم على دعائم كثيرة لا يمكن لكلام بشر أن يشتمل عليها ـ كلّها ـ فى وقت واحد، منها:

*وفرة الإفادة وتعدّد الدلالة وتنوّعها مع وجازة الآية واشتمالها على أدق وجوه البيان، وأجمل أنواع البديع. يقول الإمام الرازى: «إنّ القرآن

كما أنّه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه - هو أيضًا - معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته». ولعل الذين قالوا: «إنّه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»[٢].

فآيات القرآن الكريم المكنون، والعبارات والجمل التى يشتمل عليها، لها مستويات متعدّدة من الدلالة[٣].

* فلها دلالة بحسب الوضع اللُّغوىّ وتركيب الجمل، وهى مستوى من الدلالة يشاركها فيها الكلام العربىّ كلّه.

* ولها دلالة وصيغ بلاغيَّة، وهى على مستويات عليا ووجوه كثيرة؛ فكلام سيد البلغاء المتقنين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلّم - وهو « أفصح من نطق بالضاد» ثم أهل البلاغة من أصحابه وآل بيته نحو الإمام علىّ - رضى الله عنه - قد يصل إلى المستوى القريب من بلاغة بعض الجمل والعبارات القرآنيَّة وفصاحتها، لكنَّه لا يمكن أن يصل إلى مستوى بلاغة السورة مهما قصرت، ولا إلى المستويات العليا من بلاغة القرآن المجيد المعجز، ولو على مستوى الجملة.

---

(٢) فى كتابه البلاغى المطبوع عدة طبعات: «نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» القاهرة: الآداب والمؤيد.

(٣) لعل عدم إلمام غالبية المترجمين للقرآن المكنون بهذه الدلالات من أهم أسباب وقوعهم فى الأخطاء التى قد يقع فيها من يعتبرون حسنى النية منهم. لأن اللغات المترجم إليها لا تحمل مثل خصائص العربية، خاصة فى هذا المجال. أما سيئو النية فأولئك لهم حديث آخر.

* وهناك «الدلالات المكنونة» أو المطويَّة فالقرآن الكريم وصفه المتكلم به ومنزّله سبحانه بأنّه ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾[الواقعة: ٧٨] ففى ثنايا النص وفضاء آية يعثر المتدبَّرون الغواصَّون على اللآلئ والجواهر - عديمة النظير، وتتكشف مكنوناته كذلك عبر العصور عن معان تناسب تلك العصور بحيث تبدو كأنها لم تنزل إلا فى تلك الفترة وعلى أهل ذلك العصر.

*وهذه الدلالة ذات مستويات متعدِّدة كذلك، فمنها:

* «دلالة ما يُذكر على ما يقدَّر - مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف والصفة/ وما شابه ذلك من فنون وجوانب التقدير.

* دلالة السياق(٤)، وذلك مستوى يدرك من التدبُّر فى مواقع الجمل

(٤) السياق أمر ذو أهمية بالغة، حيث يعد «السياق» فى القرآن المنتج للدلالة والموجة إلى المدلولات، ومع شدة عناية البلاغيين وكثرة حديثهم عنه غير أنهم لم يعرفوه تعريفًا جامعًا مانعًا، وكأنهم اعتبروه مما يدرك بدون تعريف، أو أنهم اكتفوا بوصفه وبيان آثاره، واستغنوا بذلك عن تعريفه. والأصوليون قد أبدوا اهتمامًا شديدًا بدلالة السياق فالسياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد.. وذلك لأن دلالة النصوص نوعان: حقيقية وإضافية، فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته وهذه الدلالة لا تختلف. والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه، وجوده فكره وقريحته وصفاء ذهنه ومعرفته بالألفاظ ومراتبها. وهذه الدلالة تختلف اختلافًا متباينًا بحسب تباين السامعين فى ذلك..» راجع بدائع الفوائد لابن القيم (٤/ ٩١٤ - ١٠) وإعلام الموقعين (١/ ٣٥٠ - ٣٥١) وقد أوردت ابنتنا. د. رقية العلوانى تفاصيل هامة فى «دلالة السياق» وتقسيمات قديمة وحديثة أوضحت هذه الدلالة بما لا يستغنى الباحث فى هذا المجال عن مراجعته فراجع ذلك فى رسالتها القيمة» أثر العرف فى فهم النصوص: قضايا المرأة. =

من الآيات والآيات من السور والسور من مجمل القرآن، وذلك بالنظر فيما قبلها وفيما بعدها لتظهر بذلك المناسبة، وتتحدد صفة الجملة وهُويَّتها فى معرفة ما إذا كانت جوابًا عن سؤال، أو تعليلاً لمضمون كلام سابق، أو أنّها وردت فى موقع الاستدراك، أو فى موقع الدليل لما سبق. وفى سائر الأحوال فإنّ هناك وفرة فى الدلالة لا يستطيع أبلغ البلغاء وأفصحهم أن يقارب أىَّ مستوى من مستويات دلالاته الوفيرة على أنواع من المعانى لا تقع تحت حصر؛ ولذلك قال من قال: «إنّه حّمال أوجه»[5]. وذلك هو الإطلاق الذى يتفرد لسان القرآن به عن كل ما سواه، فكل ما عداه داخل فى دوائر النسبيَّة. أما هو فمطلق مستوعب متجاوز لكل ما عداه من كلام البشر، ومنهم الأنبياء والمرسلون. وفى الحديث الشريف: الذى رواه السيد الإمام أبو طالب ـ رضى الله عنه ـ فى أماليه، والحافظ المحدِّث أبو عيسى الترمذى[6] فى جامعه من حديث الحارث بن عبد الله الهمذانى صاحب على ـ رضى الله عنه ـ

= أنموذجًا» رسالة دكتوراه طبع ونشر وتوزيع دار الفكر فى دمش عام ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م ص ٢٦٠ ـ ٢٦٥. وكذلك رسالة صديقنا. د. إبراهيم أصبان التى نال بها درجة الدكتوراه بعنوان «دلالة السياق فى القرآن» لم تطبع طبعة عامة بعد. أما السباق: فهو لصيق جداً بالسياق، وكبير الأثر فى إدراك المناسبات، وهو ربط الكلمات والآيات والسور بما يسبقها، واعتبارها حلقة فى سلسلة مترابطة.

(٥) نقلت هذه الكلمة عن الأمام على بن أبى طالب ﷺ إنه قالها عندما وجه ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ لمحاورة الخوارج. ونقلها الشهرستانى فى الملل والنحل وغيره عنه، وفى النفس منها شك!!

(٦) قد قمنا بتخريج هذا الحديث من سائر مراجعه المعروفة فى الحلقة الثانية من هذه السلسلة فى «الجمع بين القراءتين» فلتراجع تفاصيل ذلك هناك.

قال: مررت فى المسجد، فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث. فدخلت على علّى - رضى الله عنه - فأخبرته فقال: أوَ قد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أمَا إنِّى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: «**ألا إنَّها ستكون فتنة**، قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: «**كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[الجن: ١: ٢]. من قال به صدق، ومن عمل به أجرَ، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم**». انتهى هذا الحديث الجليل[٧]. ويقول الإمام فخر الدين الرازى: (ت ٦٠٦هـ): «... لو أردت أن أكتب فى تفسير سورة الفاتحة وِقْرَ بعير لفعلت»[٨] وتفسيره المطبوع لسورة الفاتحة مجلد كبير يقع فى (خمسين وأربعمائة) صفحة من القطع الكبير. ط التجاريَّة فى مصر عام ١٩٣٨م.

---

(٧) راجع تفاصيل هامة حول هذا الحديث فى: الحلقة الثانية من هذه السلسلة فى «الجمع بين القراءتين».

(٨) مقدمة تفسير «مفاتيح الغيب».

إن نظم القرآن الفريد هو الذى جعله كتابًا ميسَّرًا للذكر ـ كلّه ـ فهو يقرأ بيسر وسهولة، إذ هو فى مفرداته يستعمل أقرب الكلمات، وأبلغها فى الدلالة على المقصود، وأفصحها، فلا تجد فى كلماته كلمة واحدة مصابة «بتنافر الحروف» لتباعد مخارجها، أو لثقل اجتماعها فى كلمة. بحيث تثقل على اللسان ويصعب نطقها، ولن تجد فى جمله وآياته كلمات متنافرة لأىّ سبب من الأسباب. ولن تجد فيه لفظًا مستغلَقًا، ولا لفظًا مستكرَهًا، أو نابيًا أو فاحشًا أو بذيئًا. يقول الإمام الرازى: «. . .إنّ المحاسن اللّفظيَّة غير مهجورة فى الكلام الحكْمىّ، والكلام له جسم وهو اللَّفظ، وله روح وهو المعنى. وكما أنّ الإنسان الذى نوَّر روحه بالمعرفة ينبغى أن ينورِّ جسمه بالنظافة كذلك الكلام، ورب كلمة حكيمة لا تؤثِّر فى النفوس لركاكة لفظها»[٩]. ولدقة نظم القرآن سهل حفظه، وتيسَّر ترتيله، واستطاع الناس تلاوته وتدبُّره وفهمه وتعقُّله وتذكره والتفكّر فيه بيسر وسهولة، وبقطع النظر عن مستوياتهم المعرفيَّة وطاقاتهم الذهنيّة. فإنّ مما اتفقت عليه آراء الذين تناولوا إعجاز القرآن، أو خصائصه ومزاياه «تأثير القرآن فى نفوس قارئيه وسامعيه» وقدرتهم على الميز بينه وبين سواه فمن طبيعته النزول على القلب، وتحريك الوجدان والتأثير فى النفوس. فأىّ تغيير فى بنائه يضع حاجزًا بين النص المختلق أو المغيَّر والفطرة والقلب والنفس والوجدان. وهذا ما لا يدركه

(٩) التحرير (١/ ١١٢) ونهاية الإيجاز للأم الرازى، مصدر سابق.

المفبركون، أو يغيب عنهم، فيقعون فى حبائل الشيطان، ويتوهمون القدرة على المعارضة والفبركة . .

ولدقة نظم القرآن استحال على الباطل أن يأتيه من بين يديه ولا من خلفه. واستحال على الخلق أن يأتوا بمثل سورة من سوره.

عصمة القرآن من أى نوع من التحريف

ولدقَّة نظمه اتَّسم «بالوحدة البنائيَّة»(١٠) فى بنائه - كلّه - مع تعدُّد محاوره، وتفنُّنه فى تناول مختلف الأغراض التى تحتاج - لو تناولها غيره - إلى آلاف المجلدات ولن تستوعب تلك الأغراض.

فهو تارة يعتمد الأسلوب القصصىَّ من غير مشابهة للقصة فى أسلوبها وبنائها، ومن غير خروج عن الواقع والوقائع الحقيقية، ولذلك فإنّ من المستحيل إلحاقها أو النظر إليها بمثل قصص العهدين القديم والجديد. وتارة يوظِّف الوقائع التاريخيَّة، وتارة يوجز دون أىّ تقصير فى تناول المعنى المراد، وأخرى يفصّل دون إطناب، وأحيانًا يطلق الجمل، وفى أحيان أخرى يقيِّدها، ويوظِّف الإجمال ليفتح العقول ويحملها على التفكّر والتدبُّر. ويستعمل البيان من غير أن يشعر القارئ بأن هناك إجمالا أو إطلاقًا، أو إيجازًا إلاّ إذا أنعم النظر، وأجال الفكر، وقام بالتلاوة «حق التلاوة».

(١٠) أفردنا «للوحدة البنائية» دراسة مستقلة سوف تنشر ضمن هذه السلسلة برقم (٣).

وأحيانًا يعتمد ضرب الأمثال وقد أبدع فى تركيبها، وحمل العقول على السعى للوصول إلى مراميها، وما رمزت إليه من غير خلط بينها وبين القصص كما هو الحال فى الكتب الدينيَّة الأخرى.

إرهاصات سبقت تأليف «المفبركان الباطل»

منذ عدة عقود بدأت تظهر بعض أمور كأنّها مربعات أحرف متقاطعة من الصعب تحويلها إلى كلمات ذات معنى، لعدم وجود ما يدل عليها من أسئلة وغيرها. من تلك الأمور: الدعوة إلى توظيف الدين فى معالجة مشكلات معاصرة تحتاج إلى تجنيد طاقات الشعوب، ووضعها على صعيد واحد، وتحقيق التعاون بينها. وهذا أمر جيد لا إشكال فيه، ولا اعتراض على الدعوة إليه من حيث المبدأ. ولكن . . . . . .

توظيف الدين أم اتخاذه مرجعيَّة؟

ولكنّ الفرق كبير بين «توظيف الدين» وبين «الرجوع إليه» أو حسبانه مرجعيَّة يجب الرجوع إليها لمعالجة تلك المشكلات فتوظيفه يعنى استدعاءه لأداء وظيفة أو دور يظن أصحاب «القرار السياسى» أن الدين يستطيع أن يؤديه، فيستدعى بقدر ما يؤدى ذلك الدور، ثم يعاد إلى الأرفف العالية ليستقر عليها حتى حين، وذلك عندما تظهر حاجة أخرى. وهذا النوع من الرجوع لا يدل على رجوع حقيقىٍّ إلى الدين، أو

عودة صادقة أو كاذبة إليه، ولا يصنَّف فى إطار توبة، أو رجوع إلى الحق أو صحوة دينيَّة، أو ما شاكل ذلك. فهو لا يعدو أن يكون إعطاء «الدين» وظيفة مؤقتة تنتهى بانقضاء الحاجة إليها. ولذلك اشترط الإسلام النيَّة لصحة العمل، وبيَّن ضرورة ارتباط الرجوع إلى الدين، أو التديُّن بالإخلاص: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩] أى: إنه ليست هناك شائبة تشوب تديُّننا بديننا، فتديُّننا برىء من جميع الشوائب، صاف من كل ما يكدره من شرك أو خلط واختلاط. فالمقصود به وجه اللّه - تعالى - وأىُّ فائدة قد تتحقق بعد ذلك، فهى ليست مقصودة وإن حدثت فهى فضل وفائدة لا غاية. فالمقصود الأساس وجه الله - وحده - وللإخلاص حقيقة وماهيَّة وشروط وأركان لا بد من ملاحظتها للتمييز بين توظيف الدين، وبين التديُّن الخالص الصافى الذى لا يراد به إلا وجه الله، ولو أنّ هذا المقياس أو الميزان كان شائعًا متداولاً بين المؤمنين لما خدعوا بنوبات «تديُّن الظالمين»، و لأدركوا الفرق بين من يوظِّف الدين لتحقيق مآربه الدنيويَّة ومن يوظِّف نفسه لخدمة الدين ابتغاء مرضاة الله. وإخلاصًا لوجهه الكريم.

خطوات تنفيذيّة

ويبدو أنّ هناك من أراد أن يجعل الرغبة حقيقة وواقعًا، فشكلت لجنة تحضيريَّة، ووجهت الدعوة إلى رجال كثير من الأديان السائدة، ولم

تقتصر على ما يعرف «بالأديان الإبراهيميَّة» كما هو الحال فى الحوارات التى كثيراً ما تجرى فى الولايات المتحدة. وعندى على هذه التسمية «الأديان الإبراهيميَّة» ملاحظة، فهى وإن تبنَّاها وردّدها كثير من المسلمين فإنّها تسميّة غير دقيقة، فهى تشير إلى البعد القومى فى النظر إلى الدين فارتباط «اليهود والنصارى» إن صح بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - ليس ارتباطًا دينيًا. بل هو ارتباط قومىّ - إن سلِّم - وذلك لبنوة إسحاق ويعقوب لإبراهيم وكذلك إسماعيل، وتنزل آل عمران من ذريته عليه السلام. والديانتان اليهوديَّة والنصرانية خاصّتان فى بنى إسرائيل أو سلالة إسرائيل فهما «خبز الأولاد» كما نقل عن السيد المسيح «لا يعطى للكلاب» أى: لغير بنى إسرائيل. وقوله: «إنّما جئت لإنقاذ الخراف الضالَّة من بنى إسرائيل»، وما أوردته أسفار موسى والأناجيل كلّها، يؤكد «انحصار رسالة موسى وعيسى - عليهما السلام - فى بنى إسرائيل، فموسى - عليه السلام - جاء لتحرير شعب إسرائيل من العبوديَّة لفرعون. وعيسى جاء لتحريرهم من الحرفيَّة والماديَّة التى شاعت فيهم، وإعادتهم إلى روح الشريعة الموسويَّة ومقاصدها. والتعميم الذى حدث للمسيحيّة - بعد ذلك - إنما جاء بعد اعتناق قسطنطين للنصرانيَّة، وتوظيفها لبناء مجد روما والإمبراطوريَّة الرومانية.

لذلك فإنّه لا صلة بين الديانة اليهوديَّة ولا الديانة النصرانيّة وبين إبراهيم إلاّ الصلة القوميَّة فقط لا غير. أما إبراهيم نفسه فإنّه كان

﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] ومثله موسى وهارون وعيسى وداود وسليمان ويحيى وغيرهم ممن قص الله فى القرآن قصصهم ومن لم يقصص علينا قصصهم. ومن هنا فإنّ إطلاق كلمة «الأديان الإبراهيمية» على الأديان الثلاثة، ونسبة اليهودية والنصرانيّة إليه إطلاق غير صحيح، بل إن يعقوب نفسه: إسرائيل لم يكن يهوديّا، إذ إن اليهوديّة نشأت ببدء نزول الوحى على سيدنا موسى. كما بدأت النصرانيّة بنزول الوحى على سيدنا عيسى - عليهما السلام - وكل منهما مع إبراهيم ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[آل عمران: ٦٧]

إن الأديان التى دعيت للمشاركة فى ذلك اللقاء شملت الديانات الوثنيَّة الوضعيَّة فى الصين والهند واليابان وبقية بلدان «جنوب شرقى آسيا» وكثير من المناطق الإفريقيّة، والمجاهل والغابات. وقد شارك بعض من يمثّل بعضًا منها فى ذلك اللقاء.

أمّا: اليهوديَّة فقد دُعى وشارك من رجالها عدد جيِّد من كبار أساتذة الدراسات اليهوديَّة، ومن يحملون لقب «رباى» أو حاخام من العاملين فى المؤسّسات الدينيّة اليهوديّة لطائفتى: «اليهود الأرثوذكس»، وهم الذين يرون فى التقاليد والطقوس المتوارثة لشعبهم حقيقة اليهوديّة، والدرع الذى صان وحدة الشعب اليهودىّ ودياناته عبر التاريخ.

و «طائفة اليهود» الذين يسمون أنفسهم «بالإصلاحيِّين» وتسميهم الطوائف اليهوديّة الأخرى «بالعلمانيّين» هم الذين ينادون بقبول ثقافة العصر وقبول ما تأتى به، والاستعداد للتنازل عن كثير من المواريث الدينيَّة التى قد تضع بين اليهود وبين من يعيشون بينهم من الشعوب حواجز قد تضر بالوجود اليهودىّ.

ثم النصرانيَّة فى أمريكا وأوروپا وكثير من بقاع الأرض. وإن اختلفت كنائسها، وتضاربت معتقداتها؛ ولكنّها - عندما تواجه الأديان الأخرى - تلاحظ مشتركاتها حتى تبدو كأنّها ديانة واحدة، وما هى بواحدة.

ثم يأتى الإسلام وهو ثالث دين فى العالم من الناحية العدديَّة، تليه اليهوديَّة من حيث العدد، لا من حيث النفوذ.

وهناك ديانات أخرى قد دعيت وشاركت، وهى خليط من بقايا ديانات موروثة، وبعض الديانات الوضعيَّة.

منظمّة الأديان المتحدة

ويبدو أنّ هناك مؤسسات دينيّة - من ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: ٥١] كانت تسعى لتحقيق أهداف معيّنة لدى القائمين عليها، فقد طرحت فكرة إقامة منظّمة «للأديان المتحدة» ترتبط بمنظمة الأمم المتحدة. وحين سمعت الخبر للمرة الأولى لم أدرك أن الأمر جد؛ فالفكرة لا تبدو ممكنة أو قابلة للتنفيذ، فى ظل الأوضاع القائمة فى عالمنا

ـ اليوم ـ وهى مثيرة للعجب والتساؤل: يا ترى كيف ستدار هذه المنظَّمة؟ وكيف ستكون قضيَّة التمثيل فيها؟ وما الأهداف التى ستتبنّاها؟ وما السياسات التى ستتَّبعها، وما الآليّات التى ستوظِّفها وتستخدمها . . . هناك عشرات الأسئلة تواردت على ذهنى. ثم تناسيت الأمر، أو أنسيته وحملته على أنّها قد تكون فكرة أو خاطرة أطلقها بعض الحالمين. أو المجانين أو المهلوسين!! فى بادئ الأمر.

ثم تلقيت دعوة من «لجنة تحضيريَّة» أشارت فى دعوتها إلى أنّها ترغب فى جمع نخبة من «رجال دين» يمثّلون مختلف الأديان الشائعة بين البشر اليوم للتحاور حول أفضل السبل التى يمكن لرجال الدين أن يساعدوا بها فى احتواء ومعالجة مشكلات العالم المعاصر!! وكان مكان عقد الاجتماع المقرّر أحد أهم «مراكز الدراسات النصرانيَّة»، يقع ذلك المركز ـ الدير ـ قريبًا من نيويورك، وعلى مرتفع من المرتفعات الجميلة القريبة منها. والمركز يقع فى مبنى قديم لكنّه فخم جدًا وواسع جدًا، ففيه جميع المرافق من مكتبة ومطاعم ومبان مخصَّصة لإقامة الرهبان، وأفواج التنصير التى تنطلق منه إلى كل أنحاء المعمورة. وفيه اكتفاء ذاتىّ يغنى طلابه وأساتذته ورهبانه، وأفواج التنصير التى تنطلق منه وتعود إليه، عن الاتصال بالعالم الخارجىّ إلا عندما يريدون ذلك.

وقد أسكنوا المشاركين القادمين من خارج المدينة فى غرف معدة لأفواج التنصير. حيث إنّ تلك الأفواج تعود إلى هذا «المركز»

samenary بعد أن تقضى فترة محدّدة فى المواقع التى أرسلت إليها، ثم تعود بتقاريرها ودراساتها لتزود بها المركز، وتتلقى فى الوقت نفسه من أساتذة ورهبان المركز التوجيهات الجديدة، والمحاضرات التى تساعدهم فى تجديد معلوماتهم، وإنماء أساليب عملهم، ليعودوا لممارسة مهامّهم التنصيريَّة من جديد. ويقضى الفوج، العائد شهرًا كاملاً فى عمل دءوب لتبادل المعلومات، والتزوُّد بالخبرات الجديدة، ثم يعود ليأتى فوج آخر وهكذا. فهو خليَّة نحل لا تتوقف عن العمل ولا تفتر. وكم تحسَّرت وأنا أشاهد ذلك ـ كلّه ـ على مؤسَّسات الدعوة ومنظّمات الدعاة فى بعض بلادنا المسلمة التى تمارس عملها ـ إن أتيح لها أن تمارس شيئًا ـ بعشوائيَّة وسذاجة لا تنسجم وأبسط القواعد العلميَّة فى هذا المجال ـ الذى أصبح مجالاً من أخطر مجالات المعرفة، له فنونه وعلومه، والعلوم والفنون التى ترفده بكل جديد لتجعل من الداعية عنصرًا فاعلاً ومؤثّرًا وناجحًا فى عمله. فيخضع لتدريبات شاقة، واختبارات دقيقة ليس هذا مجال تفصيلها.

ومع كل ما لدى من مخاوف وتحفظات قررت المشاركة، وحين بدأ لقاء «القيادات الدينيَّة» المدعوة أعلن أنّ عدد الأديان الممثلة فى هذا اللقاء أربعون دينًا لكل منها أتباع فى الولايات المتحدة. واستغربت ذلك، ولكن سرعان ما زال الاستغراب حين وزعت أوراق تقدم بعض التفاصيل: فقد عدوا «البهائيّين» ديانة مستقلة و «القاديانيّين» كذلك ومثلها بعض الأديان الهنديَّة التى قد لا يتجاوز عدد أتباعها سكان قرية

هنديَّة متوسطة. وألقيت كلمات. وأقيمت أنواع مختلفة من الصلوات.

صلوات مشتركة

ثم أعلنت لجنة المؤتمر عن أن الجلسات ستتخللها صلوات، فممثّل كل دين عليه أن يقدم «الصلاة» الأساسيَّة المفروضة في دينه، ويشاركه الآخرون ـ بخشوع ـ في أدائها أو بالصمت والتأمّل، فذلك سوف يساعد على تحقيق الاحترام المتبادل !!! وما علمت أن الإصابة بالإسهال نعمة بقدر ما علمت ذلك في تلك الأيام، فقد كنت أجد في الخروج من القاعة إلى الحمّامات بسبب ذلك وسيلة حماية ووقاية من الاستماع إلى «صلوات المكاء والتصدية» فضلاً عن المشاركة فيها والعياذ بالله. وأعلنت ـ المسئولين ـ أنَّني مريض ربما من الطعام، أو الإصابة بالبرد، لئَّلا يفسَّر خروجي المتكرّر بأي تفسير آخر. ولمَّا جاء دوري لأداء الصلاة المفروضة علينا ـ نحن المسلمين أمام هذا الجمع ـ أبديت اعتراضًا على أنهم يطلبون مني الصلاة في غير وقتها المحدّد عندنا، وهذا أمر غير مقبول، ولكنّني على استعداد إن شاءوا أن أصلي الصبح في أول وقتها غدًا على أن تعد قاعة مناسبة، ويحضر المؤتمرون جميعًا ليروا ويسمعوا تلاوتي وصلاتي وسوف أشرح لهم ذلك وأترجم لهم ما أتلوه من القرآن إن شاء الله. فقال أكثرهم: إنّهم سوف يكونون نيامًا في هذا الوقت، ولن يسهل عليهم الحضور. وهمهم بعضهم بأنّه قد شاهد من قبل

صلوات إسلاميَّة، فأخبرتهم بأنّنى سأستبدل إذن ذلك وأستخدم الوقت المخصّص لى الآن بقراءة آيات من القرآن الكريم مع ترجمتها، وقد كان.

لكنّ ما خرجت به من ذلك اللّقاء أن الأمر جدٌّ، وأنّ القوة الموجَّهة لعالمنا المعاصر تعمل على توظيف الدين لخدمة أغراضها السياسيَّة بكل ما تملك من وسائل. وأنّ المستهدف الأول من كل تلك الجهود المحمومة، والضحيَّة الأولى لها سيكون الإسلام والمسلمين!

درس من الأمم المتحدة

إنّ «الأمم المتحدة» منذ إنشائها شكلت سلاحًا سياسيّا مهمّا بأيدى الدول الكبرى التى تهيمن على مجلس الأمن وعلى كثير من المنظّمات الفرعيَّة والأساسيَّة. والبلدان المسلمة يرفع بوجهها على الدوام سلاح «الشرعيَّة الدوليَّة» وهو مفهوم وهمىٌّ خاطئ يعبّر عن وهم كبير لم يعد يخفى على أحد. ومثله سلاح «الإجماع الدولى» والخروج على الإجماع الأممىّ. . . . و. و. . . إلخ.

واستولى على قلق وخوف شديدان: إنّ هذه المنظمة «منظمة الأديان المتحدة» لو قامت فسوف تستخدم هذه الأسلحة أو مثيلاً لها فى مواجهة الإسلام عقيدة وشريعة ونظم حياة، فما أسهل وأيسر أن تصدر قرارًا ينال إجماع ممثلى تلك الأديان!! بمنع «الجهاد» مثلا نظريّا وعمليّا أو توصية

بتـحـريمـه دوليّـا، والمناداة بوجـوب إتلاف وإعـدام سـائر الكتب والدراسات، بل والآيات والأحاديث النبويَّة المتعلقة به. وبذلك يصبح مجرد الحديث عن الجهاد أو تدريسه جرمًا ممنوعًا ـ كما هو الحال اليوم ـ فضلا عن ممارسة أيّ نوع من أنواعه إلاّ جهاد النفس لقبول الواقع المر؛ لأن مجرد الإبقاء على المفهوم يعدُّ خروجًا على «الشرعيَّة الدينيَّة الدوليَّة» و«الإجماع الدينيّ الأممى» و.... و.... إلخ.

وقل مثل ذلك فى الزكاة، وسائر أركان الدين والشريعة، والعقيدة. وآنذاك لا يعود القرآن المجيد مصدرًا للعقيدة والشريعة، ولا السنّة النبويَّة المشرّفة مصدرًا مبينًا لأنّ التشريع الدينيّ العالميّ ستكون مرجعيَّته تلك الهيئة الدوليَّة، فهى التى تقرر ما هو من الدين، وما هو خارج عنه، وبمقتضى ميثاقها سوف يتم تصنيف الأديان ومعتنقيها. وسائر ما يتعلق بهم وبها. وصدمت صدمة كادت تذهب بعقلى، وحدّثت بعض قادة المؤسّسات الدينيَّة فى أمريكا وفى عالمنا الإسلامى فى هذا الأمر وكيف سيكون موقفهم لو وجدوا أنفسهم فى مواجهة أمر كهذا؟ ومن المؤسف أنَّ معظمهم كان يبدى عدم اكتراث، أو يستبعد حدوث ذلك.

وبعضهم كان يردّد: إنّ الإسلام أقوى من كل تلك المحاولات، وإنّها لن تنال منه... ولاشك فى أن الإسـلام ـ فى ذاته ـ لن يزول بإذن الله، ولن تنطفئ أنواره. وأن القرآن محفوظ بحفظ الله ـ تعالى ـ فلن ينالوا منه نيلاً، لكن سنة الله ـ تعالى ـ أن يقذف بالحق على الباطل

فيزهقه. ومن سننه وقوانينه التى لا تتبدَّل «سنّة التدافع»: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

وهناك «سنّة الاستبدال»﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] فالمسلمون إن لم يحملوا الحق الذى كلّفوا بحمله، وإعلاء شأنه، ولم ينضموا إلى صفوف حملته الذين يقذف الله بهم أهل الباطل فيزهقه، فقد يعلو الباطل ولو إلى حين، وقد تقع عليهم «سنة الاستبدال» لأنّهم تخلوا عن مهمتهم، فلا بد من استبدالهم.

هذا الذى استبعده الكثيرون من قيادات المسلمين قبل سنوات قلائل صرنا نشاهده اليوم، ونلمس آثاره. منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر وسائر بلاد المسلمين تتعرّض لعمليّة إبادة ثقافيَّة، وتدمير هُوِيَّة شاملين.

وبعد الحادى عشر من سبتمبر قررت «المنظمة الاقتصادية العالميّة» فى («دافوس») المعروفة، أن يكون أول اجتماع لها فى مدينة نيويورك تكريمًا للمدينة الجريحة وتعزية لها.

دعيت ـ أيضًا ـ إلى ذلك اللقاء الذى عقدته «المؤسسة» فى نيويورك؛ وعقد لقاء مماثل أداره هذه المرة «أسقف كانتربرى» السابق. ولقيت فيه بعض من كانوا قد شاركوا فى اللقاء الأول. تم توزيع الملتقين على لجان وموائد، وطرحت عليهم أسئلة طلب منهم بيان مواقف

أديانهم منها. أو موقفهم الدينيّ منها، ومع اختلاف المضمون بين اللقاءين، لكن اللقاءين كانا يصبَّان فى اتجاه واحد، وهو جعل فكرة التنسيق بين الأديان مرحليّا ممكنة، تمهيدًا للعمل على إقامة «منظمة تعمل على تحقيق فكرة الأديان المتحدة» وجعلها مقبولة لدى الجميع!! وهل المسلمون اليوم يملكون شيئًا إلّا أن يقبلوا.. أو يرضخوا؟

ثم علمت أن مكتبًا قد فتح فى « الأمم المتحدة» للعمل والتنسيق معها لإيجاد «المنظمة الجديدة» ولو بعد حين ـ: فالأمر ـ إذن ـ قد خرج من طور الفكرة، ومحاولات تهيئة الأذهان لها إلى طور التنفيذ والتحقيق... وآنذاك سوف تنتهى المرجعيَّات التى تتنافس فى بلاد المسلمين، على ألقاب ما أنزل الله بها من سلطان، وكراسىٍّ لا قوائم لها. وسوف تنهار الأحلام الطائفيَّة مذهبيَّة كانت أم سياسيَّة؛ لأنَّ القوم يستهدفون «الإسلام والمسلمين معًا» لا فرق عندهم بين سنىٍّ أو شيعىٍّ إمامىّ أو زيدىّ أو إباضىّ. ولا فرق عندهم بين صوفىّ أو سلفىّ، أو مذهبىّ أو لا مذهبىّ. ولا بين عربىّ أو كردىّ أو تركمانىّ أو فارسىّ أو هندىّ. فهؤلاء جميعًا يمثّلون منابع «الإرهاب» أو أىَّ صفة أخرى يبتكرونها.

«المفبركان الباطل»

فهل «المفبركان الباطل» حلقة من حلقات هذه السلسلة؟ وهل يجب علينا الوقوف عند هذه الظاهرة، والحذر منها؟ وهل أراد الذين شاركوا فى صناعته وفبركته تقديمه بين يدى المنظّمة المقترحة لتتخذ منه «فرقانًا موحدًا» لها، ولتجعل منه مرجعيَّة دينيَّة واحدة ملزمة للجميع؟! كل ذلك محتمل!!

إذ لم يعد ـ هناك ـ شىء مستبعد فى ظل قيادة عالم اليوم فكل ما كان بالأمس خيالا أو أغرب من الخيال صار فى عالم اليوم واقعًا، أو جزءًا من الواقع!!

لقد تعرض القرآن المجيد منذ نزول«اقرأ» على رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلّم ـ إلى كل ما عرفته البشريَّة من وسائل اللغو والتشويش والدس والافتراء والكذب والتكذيب، ومحاولات المحاكاة، والتقليد، والتحريف والمجادلة فى كل شأن من شئونه، وهو صامد يتحدَّى الإنس والجن ويثبت عجزهم واستسلامهم، وفشلهم فى الوقوف أمامه، والاستجابة لتحديه.

وليم جلادستون والقرآن

ولم تتوقف المحاولات حتى يومنا هذا. والذاكرة التاريخية تعود بنا إلى عهد «وليم جلادستون» رئيس وزراء بريطانيا الذى أدى أدوارًا خطيرة

فى السياسات الاستعمارية البريطانيّة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ففى عهده جرى احتلال مصر. وهو الذى فك وحدة مصر والسودان. لقد رفع هذا الحاقد مرة بيده الملطخة بدماء المسلمين مصحفا فى مجلس العموم، وهو يخطب فى أعضائه، وقال: «لن يكون لنا فى الشرق مستقبل ما دام هذا القرآن يتلى»، ثم أشار ناحية مكة وقال: «وكعبة تزار» فكانت دعوة صريحة للغرب المعاصر بضرورة استئصال القرآن، وتدمير الكعبة. والذى يعرف عن الغرب شيئًا يستطيع أن يدرك أن كلمات مثل هؤلاء القادة تحفر لنفسها مساكن فى العقل والضمير الغربىّ، بحيث تظهر عند الحاجة والاستدعاء، ويعاد توظيفها، وتنفيذها بنوع غريب من «الجبريَّة».

المفاهيم الخاطئة

لقد تعرض الإسلام منذ ما يزيد على قرنين من الزمان إلى عمليَّات تشويه، أوجدت مجموعة كبيرة من المفاهيم الخاطئة فى عقول أبنائه وفى عقول غيرهم، حيث شاعت النظرة إلى الإسلام على أنّه خصم للتجديد، ونقيض للتحديث، وأنّ القرآن الكريم هو الذى أوجد هذه المواقف لدى المسلمين.

كما انتشر مفهوم مفاده أن لا فرصة للمسلمين لدخول العصر، واللِّحاق بركب المتقدمين إذا لم يتخل المسلمون عن الإسلام، ويبعدوا

القرآن عن مجالات التأثير فى حياتهم. وهناك مفهوم آخر قد شاع وجرى تداوله فى عالم اليوم هو إيمان المغفلين من المسلمين « بعلمانيَّة الدول الغربيَّة» وأنّ الغرب قد بنى تقدمه على « الفصل بين الدين والدولة» ، واستقر فى أذهان النخبة المغرّبة من أبناء المسلمين منذ القرنين الماضيين أنّ الدولة «ظاهرة مدنيَّة» يجب أن يكون لها استقلال مباشر عمّا أسموه «بالظاهرة الدينيّة» . وقد فهم أبناء المسلمين هذا بهذا الشكل الحاد، ولم يلتفتوا إلى أن الدولة فى الغرب لم تضع الدولة فى مواجهة الدين، بل قامت بتنظيم العلاقة بين الاثنين بحيث يجعل ذلك التنظيم بينهما نوعًا من التعاضد والتماسك فى تحقيق أهداف الأمَّة. أما المقلّدون من أبناء أمتنا وجلدتنا، فقد فهموا أن المطلوب ـ هو التخلى التام عن الدين ومحاصرة القرآن، كما فعل «أتاتورك» وكثير من حكام المسلمين بعد ذلك بأساليب متنوعة.

وأمام ذلك أصبح للقرآن أعداء من بين صفوف أبنائه ففقدت الأمَّة تماسكها، وبذلك تحقق «لجلادستون» ما تمنّى.

تغييب مفهوم الأمة

إنّ مفهوم «الأمَّة» لا يمكن له أن يعيش بعيدًا عن القرآن، وعن لغة القرآن، وحاكميَّة القرآن، وشريعة القرآن، وقيم القرآن، والسياسات الشرعيَّة للقرآن. والإرادة الإسلاميَّة التى يوجدها القرآن، والفاعليَّة التى

يحـققـهـا القـرآن ! ! والشرعيَّة التى يمنحـهـا القـرآن للحـاكـمـين ؛ وأنَّى لحكومات المسلمين أن تكسب شعوبها وتتضامن مع مواطنيها بدون رابطة القرآن ؟ !

إنّ العلاقة التى بناها القرآن بين الحاكم والمحكوم ـ هى علاقة الحاكم بالأمَّة المسلمة : علاقته بالناس وبالجماهير ، لا بالأرض وحدها ، وتلك هى العلاقة التى يهدى إليها القرآن .

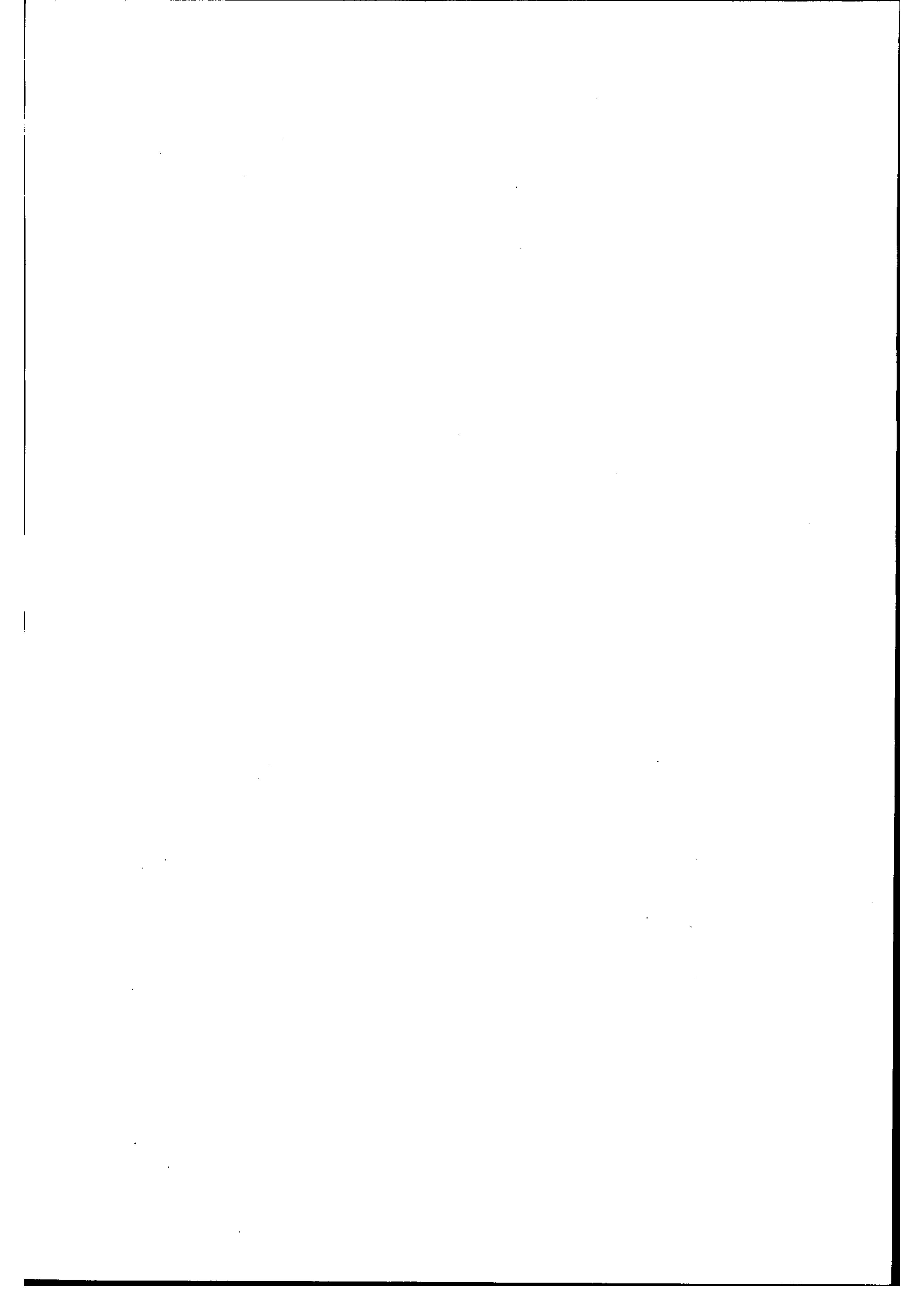
وهى علاقة لا تتأثر بتعدد النظم ، ولا بأشكالها ؛ فلا تتحدد الأمَّة بأقاليم ، ولا بحدود ، بل تتحدد بالالتزام بالقرآن والتكلّم بلغة القرآن ، وتقوم على قيم القرآن العليا : التوحيد والتزكية والعمران .

فإن أنا أدركنى الخوف اليوم على القرآن فليس مرد هذا الخوف أنّنى لا أدرك أن للقـرآن منزّلاً يحـمـيـه ، بل لأن أمَّـة القرآن لم تـعد أمَّة للقـرآن ، وبذلك فإن القرآن لن يحميها وقد تخلت عنه ، قال تعـالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[الجمعة : ٥] وحين ندرس أحوال المسلمين ندرك أن الذين حـمّلوا القرآن ثم لم يحملوه إلا «بالطريقـة الحـمـاريَّة» ـ أى : حـمـلوه على ظهـورهم لا فى قلوبهم وعقولهم ونفوسهم ـ لن يكون مصيرهم أحسن من مصائر أولئك الذين حمّلوا التوراة ، بل سوف يكون أسوأ بكثير ! !

إنّهم يعرفون أهميّة القرآن وفاعليته

إنّهم يعرفون خطورة هذا القرآن أكثر مما يعرفها المنتسبون إلى الإسلام. إنّهم يعرفون أنّ هذا القرآن قد بنى أمَّة من قوم لم يتخيَّل أحد أنهم سوف يكونون أمَّة. وبنى على أيديهم حضارة ما تزال غُرَّة فى جبين تاريخ الحضارات. وأقام على الأرض عمرانًا ما شهدته الأرض قبل القرآن ولن تشهده بعده. كل ذلك يعرفونه، و تجهله غالبيَّة المسلمين، لذلك فإنّهم لن يتوقفوا عن محاربة القرآن. والقوم ذوو نفس طويل؛ ألم يقل الچنرال ألّلنبى فى أوائل القرن الماضى: «الآن انتهت الحروب الصليبيَّة»!!

أنا لست خائفًا على القرآن مهما طالت معركتهم ضده، فللقرآن متكلِّم به، ومنزّل له يحميه ويحفظه. لكنّنى خائف على المسلمين، وقد سقطت سائر دروعهم وهم يواجهون أقدارهم بصدور عارية، ولا يلتفتون إلى أنّهم قد صاروا أعداءً للغتهم العربيَّة، وخصوصًا لتاريخهم، وأعداءً لآبائهم وأجدادهم، وعشَّاقًا لأعدائهم وجلاّديهم، بحيث ظهر فيهم سلمان رشدى وآياته الشيطانية، ونسرين التى وصفت القرآن المجيد «بالعار»، وخليل عبد الكريم الذى لم يشتم أعدى أعداء الإسلام الإسلام والنبىّ والقرآن أقذع من شتمه والقائمة طويلة، فكيف نتصدى لأعداء القرآن، وكيف نحمل رايته، وننقذ البشريَّة وأنفسنا به، هذا ما تحاوله هذه السلسلة من «دراسات قرآنيَّة» سائلين منزّل القرآن العون، والتوفيق والتسديد. إنه سميع مجيب.



أزمة الإنسانية

ودور القرآن الكريم في الخلاص منها

تمهيد

لقد أنزل الله ـ تعالى ـ القرآن المجيد على عبده ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. ومنذ بدء نزول القرآن ورسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يبين للناس الذى اختلفوا فيه بهذا الكتاب، ويجاهدهم به جهادًا كبيرًا، ليحملهم على التفكير والتذكر والتلاوة والتدبُّر والتعقُّل والترتيل ليعلم رافضوه والكافرون به أنَّهم كانوا كاذبين فى تصوراتهم وأفكارهم، ورؤاهم ومعتقداتهم، وسلوكيَّاتهم وتصرّفاتهم وعلاقاتهم وسائر شأنهم، وليهتدى المؤمنون إلى التى هى أقوم فى ذلك ـ كلّه ـ وفى غيره. فهو شفاءٌ لما فى الصدور وهدى ورحمة، وهو «منهج» يهدى به الله من اتَّبع رضوانه سبل السلام، وهو نور يخرج به الله من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم[11].

(١١) خاصة فى المجالات التى عرفت بالعلوم النقلية أو الإسلامية أو معارف الوحى أو=

الأمة واستجلاء معانى القرآن

منذ أن لحق رسـول الله ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ بالرفـيق الأعلى، والأمـة المسلمة التى صُنعت بالقـرآن على عـين الله ـ تعـالى ـ وبجهاد رسوله الأمين، والأسوة الحسنة التى قدّمها، والسنن التى أرسى دعائمها: والأمة تسعى جاهدة للإلمام بمعانى القرآن، وإدراك مقاصده، واستجلاء مراميه وغاياته، والوصول إلى برد اليقين فى فهمه ومعرفة تفسيره وتأويله. فأنتجت فى سبيل ذلك علوم اللُّغـة العربيّـة بكل فروعها، وقعّدت قواعدها، ووضعت نحوها وصرفها، وأبرزت خصائصها، واستنبطت بيانها وبديعها ونثرها وأحرفها وألسنة قبائلها، والمؤتلف والمختلف فيها لتوظيف ذلك ـ كلّه ـ فى استجلاء معانى ذلك القرآن، والكشف عن ذلك البيان، والفقه فيه، ومعرفة أساليبه، ومحاولة العروج إلى عليائه.

كما جُمعَتْ سنن رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وآثار الصحابة وفقَههم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، وفتاوى قرائهم لبلوغ تلك الغايات، والعروج إلى سماء تلك الآيات. فكانت حصيلة تلك الجهود

= العلوم الشرعية، وكذلك المعارف والعلوم الإنسانية والاجتماعية. راجع بحثنا فى هذه السلسلة الخاص بأسماء القرآن وصفاته من «دراسات قرآنية». إن هذه الأسماء والصفات التى سمى الله ـ تعالى ـ بها القرآن أو وصفه بها لا ينبغى أن تؤخذ على أنها مناقب أو أوصاف هدفها بيان الفضيلة، بل على أنها محددات منهاجية منتجة لا بد من بذل العناية والجهد فى تحليلها وفهمها.

أن بلغت تراكمات ذلك حد بلوغ مرحلة تأسيس وتدوين ما عرف بـ«العلوم النقلية».

العلوم النقلية

لقد تتابعت الجهود فى مختلف المجالات، وتنوعت الاجتهادات، وكثرت وتعددّت المقاربات حتى تراكمت لدى الأمة مجموعة مهمة وكبيرة ومتنوعة من المعارف تحولت خلال القرنين الهجريين الأول والثانى إلى علوم وفنون ومعارف وصناعة مدّونة[١٢]. وبقيت مدارس علماء الأمة تضيف عليها، وتحذف منها، وتطور فيها، وتتوسع فى قضاياها حتى بلغت حدّاً من تكامل فى مشارف نهايات القرن الرابع الهجرى: وهنا استوت على سوقها وعُرفت مبادئها، واستقرت وسائلها، وتمايزت مقاصدها عن وسائلها، واستقل كل منها بشىء من ذلك، فكانت أحد عشر علمًا، ما بين علوم وسائلية، مثل علوم اللغة والمنطق، وعلوم مقاصديَّة مثل علوم التفسير والحديث، والأصول والفقه والتوحيد، وذلك بقطع النظر عن تفرعاتها وشعبها الداخليَّة، وأنواع المعارف التى أخذ بعضها فى حجز بعض حتى تجاوز عددها فى القرن السادس وما تلاه مائة علم وفن[١٣].

(١٢) يذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام، ثم السيوطى فى تاريخ الخلفاء أن هذه المعارف قد بدأ تدوينها رسميًا عام ١٤٣هـ.

(١٣) على ما فى موسوعة الإمام الرازى المتوفى عام ٦٠٦هـ، ويراجع فى ذلك بحثنا الذى لم ينشر عن فخر الدين الرازى: حياته، شيوخه، ومؤلفاته. وكذلك يراجع **تصنيف**=

فهل أوصلت هذه العلوم والفنون والمعارف الأمَّة إلى غاياتها فى القرآن، وبغيتها منه؟

الجواب: أن كل تلك الجهود قد حوّمت بالأمة حول بعض شواطئ ذلك الكتاب المجيد، الكريم، المكنون، وقدمت شيئًا من الفوائد، ولكنها قد قصرت عن الإلمام «بمطلق الكتاب» إذ هيمنت نسبيَّة البشر على ذلك «المطلق» وقيَّدته إلى مدركاتها الظرفيّة ومحدّداتها الزمانيَّة والمكانيَّة، وسقوفها المعرفيَّة، وقاسته على الكتب التى سبقته من بعض الوجوه، فأدى ذلك كلُّه إلى بروز تفسيرات متضاربة، وتأويلات متناقضة، وفقه مختلف، وكلام متعسف، وأصول تمازجت بالفروع، وتحولت الوسائل اللغوية إلى مقاصد، بحيث صارت تتحكم أحيانًا فى لغة القرآن، وصارت تلك المعارف مقصودة لذاتها، أو مرجعيات بديلة يستغنى بالرجوع إليها عن الرجوع إلى القرآن إلا على سبيل الاستشهاد. واتخذت السنن النبوية ـ بدورها ـ معضدات وشواهد ساندات لما سبره السابرون[14]، وأصله المؤصلون لتلك المعارف والعلوم.

= **العلوم** للكندى، والفارابى، وابن حزم، وابن الساعى الأكفانى، وطاش كبرى زادة، وكذلك كتب المتأخرين أمثال **أبجد العلوم** ونحوها، فتلك الكتب والدراسات مفيدة فى معرفة ذلك؛ وإحصاء تلك العلوم.

(١٤) يراجع **البرهان** لإمام الحرمين الجوينى، الفقرة ١٥٣٥، وقارن بـ١٥٤٨. **وتاريخ التشريع** للخضرى، وكتاب عياض السلمى **استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة**، حيث أوضح كيف كان جمهرة الأصوليين يتخذون من أدلة الكتاب والسنة فى الأعم الأغلب معضدات لما يتوصلون إليه. وكذلك **المحصول** بتحقيقنا فى مباحث التقليد. أما =

إطلاقية القرآن والمعارف النقليَّة

وإذ حجبت بعض تلك المعارف أنوار «إطلاق القرآن» وفككت وحدته البنائيّة، تفككت معها «وحدة الأمة» وتفكك ائتلافها، وتناثر جمعها، وانحطت إلى مستوى التمزُّق الطائفي، والتشتُّت المذهبيّ. كما أن بعض هذه المعارف قد تجاوزت مع بُعد «الإطلاق» بُعد «العالميَّة في الخطاب القرآنيّ» وفسَّرته كما لو كان خطابًا قوميًّا منحصرا في قوم أو محيط جغرافيٍّ محدَّد أو فترة تاريخيَّة معيَّنة مما فتح أبوابا كثيرة لطعن الطاعنين، وتحريف الغالين، وتأويلات الجاهلين، وانتحالات المبطلين(١٥).

ومع تجاوز «إطلاق الكتاب» و «عالميّة الخطاب القرآني»، اختفى بُعد «حاكمية الكتاب». وكما انزوت خصائص الشريعة التي أكدتها الآيات (١٥٦ ـ ١٥٨) من سورة الأعراف، لم يبرز لتلك المحدّدات المنهاجية الأثر الذي كان ينبغي أن يظهر في تلك المعارف، وينعكس على تلك

=تحكيم قواعد اللغة الوضعية في لسان القرآن المعجز فستتناوله إن شاء الله في الحلقة الخاصة «بعربية القرآن» من هذه السلسلة: باعتبارها حلقة من حلقات هذه السلسلة.

(١٥) يراجع كتاب القاضي الباقلاني المخطوط **الانتصار لنقل القرآن** الذي يكاد يستقرئ فيه شبهات أهل زمانه في هذا المجال، وكذلك مختصره المطبوع للصيرفي المسمى **بالنكت** ولمعرفة الآثار الخطيرة لتجاهل وتجاوز «المحددات المنهاجيَّة للقرآن وعدم الوعي بها تراجع دراستنا «**أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية**» ط القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٢٥ هـ ـ ٢٠٠٤م.

ودراستنا ضمن هذه السلسلة: **الخطاب العالمي في القرآن** قيد الإعداد. ودراسة أخينا مصطفى جابر **عالمية الخطاب القرآني: دراسة تحليلية في السور المسبحات الخمس** ـ رسالة ماجستير لم تطبع طبعة عامة بعد.

العلوم والفنون، ويسدِّد مسيرتها. وبذلك اتخذ تراثنا النقلىُّ كثيرًا من السمات السلبيَّة، أو القابلة للنقد الَّتى لا تخفى على المختصين بتلك المعارف والفنون.

سبيل الخلاص هدف عالمىّ

ولتتجاوز «الأمة القطب» ثم العالم من بعدها الأزمات الفكريَّة والثقافيَّة، والصراعات والتناقضات الطائفيَّة والأمميَّة التى تأخذ بخناق البشريَّة اليوم، لا بد من ابتغاء القرآن المجيد، والعروج إلى عليائه من جديد، والتعامل معه من ذات المنطلقات التى كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتعامل معه بها بحسبانه كلام الله - تبارك وتعالى - المطلق والمصدِّق والمهيمن والحاكم على كل ما عداه، وبحسبانه الخطاب العالمىَّ النازل بالشريعة السمحاء التى نفت ورفعت عن الناس الحرج، وأحلَّت لهم الطيِّبات، وحرَّمت عليهم الخبائث، ووضعت عنهم الإصر والأغلال التى كانت عليهم؛ فكانت رحمة للعالمين، وتخفيفًا عن الناس أجمعين إلى يوم الدين. والقرآن مهيمن على ما سبق بخاتميَّته، ومهيمن على ما لحق بإطلاقه وحاكميَّته، ومصدِّق على كل ما عداه بشموله وإحاطته.

إن سبيل الخلاص الوحيد يكمن فى هذه العودة الصادقة المخلصة التامة إلى القرآن المكنون، فبها يمكن أن تبدأ مسيرتنا الكبرى، وانطلاقتنا

الشاملة للخروج مما نحن فيه، ولتأسيس «البديل الحضارىّ الإسلامىّ العالمىّ» القائم على الهدى والحق والقيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران. إن شاء الله تعالى. وبدون تلك الرجعة الصادقة المخلصة إلى رحاب القرآن فإنَّه لا أمل للبشريَّة - كلها - ولا مُخرج لها مما تتردى فيه، ولن تزيد حالتها الفوضويَّة إلا سوءا وتدهورا، وأَنذاك «لن يبك ميت، ولن يفرح بمولود».

نقطة البداية فى فهم الحالة الراهنة

إن نقطة البداية أو الانطلاق نحو الخروج من أزماتنا و بناء «البديل الحضارىّ الإسلامىّ العالمىّ» تكمن فى محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا وللعالم - كلّه - من حولها، فهذا العالم - بكل ما فيه - صار يؤثّر فى كل شىء فى أمتنا؛ فيؤثّر فى فكرها وأنماط حياتها، وسياساتها واقتصادها، بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها، بحيث صار يختار لها ما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى، ولسان حاله يقول ما حكى القرآن من قول فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

هنا نحتاج إلى دراسة «المآسى الإنسانيَّة الراهنة» و «الأزمة العالميَّة الحاليَّة» التى تزداد كثافة وظلاما عبر الأيام بمنظور آخر، إذ تشخّصها وتفسّرها الدراسات اللاهوتيّة اليهوديّة والنصرانيّة، بل وبعض التوجهات

الإسلاميّة مضافًا إليها البوذية والكنفوشيوسيَّة والشنتو وما إليها بأنها مآس وأزمات سببها «الانحراف عن الدين»[(١٦)]؛ وهذا مسلَّم به من

(١٦) استمع العالم إلى الكثير من التحليلات حول «الزلزال الذى حدث فى المحيط الهادى» وأطلق عليه «تسونامى» وضرب مساحات كبيرة من شواطئ جنوب شرق آسيا. وذهب ضحية ما سببه من أضرار مئات الألوف من البشر والحيوان فضلا عن بلايين من الدولارات قدرت بها أضرار الممتلكات والأموال والزروع وما إليها. وكان أكثر المتضررين بذلك أبناء جزر إندونيسية مسلمة وجاءت التحليلات اللاهوتية التالية فى التعليق على أسباب ما حدث: فهناك تحليلات كنسية استندت إلى الأناجيل، وقالت بأن السيد المسيح «قد تنبأ بحروب واضطرابات فى العالم. وزلازل شديدة ومجاعات وأوبئة..» وأنه قال ـ وهو يهيئ أذهان تلامذته لمجيئه الثانى: «.. وستظهر علامات فى الشمس والقمر والنجوم. وتكون على الأرض ضيقة على الأمم الواقعة فى حيرة؛ لأن البحر والأمواج تعج وتجيش ويغمى على الناس من الرعب، ومن توقع ما سوف يجتاح المسكونة، إذ تتزعزع قوات السماوات... عندئذ يرون ابن الإنسان آتيًا فى السحاب» انجيل لوقا تحت عنوانٍ «نهاية العالم ومجىء المسيح ثانية» (ص ٢٥٨ و٢٥٩). فإذًا تكون وجهة النظر الكنسيَّة فى تفسير ما حدث: أن: كل هذا الذى يحدث إنما هو تمهيد للمجىء الثانى للسيد المسيح ـ وبناءً على ذلك تتوقع قيادات دينية فى أمريكا وغيرها، أن السيد المسيح قادم إلى العالم ثانية عام (٢٠٠٧) بالذات وإذا تأخر فلن يكون ذلك أبعد من ٢٠٠٩. وكل هذه الفوضى هى بعض المقدمات الضرورية لمجيئه ﷺ. فنهاية الأرض ونهاية التاريخ لن تحدث إلا والنصرانية بقيادة المسيح متنصرة وسائدة فى الأرض ـ كلها ـ فالمسلمون لا حل أمامهم ـ والحال هذه ـ إلا التنصر أو الموت، واليهود الذين حاولوا صلبه، وأغروا به هذه المرة سيكفرون عن خطاياهم وينضمون إلى السيد المسيح ابن الرب ـ ابن الإنسان!!.. والآخرون سوف يدخلون النصرانية، وبعد ذلك تكون الخاتمة: نهاية التاريخ وسيادة النصرانية ـ الأرض كلها.
وهناك تحليلات يهودية لا تختلف كثيرا إلا فى بعض التفاصيل، حيث إن لديهم «مشايا» أو «مشيح» ذا صفات خاصة يظهر ليحكم العالم منتصرا لليهود واليهودية وتسبق قيام حكومته العالمية مجموعة كوارث ومصائب. فالمصائب والكوارث ـ إذا ـ محتمة=

حيث العموم ولكنّ أصحاب كل دين ـ هنا ـ يعنون «بالانحراف عن الدين» الانحراف عن دينهم هم، وكل دين بمفهومه المستقل يَعُدُّ التدين

= الحدوث عند الفريقين. والمسلمون معرضون للتنصير أو الإبادة عند النصارى والأبادة فقط لا غير عند اليهود القوميّين الذين يعتبرون أنفسهم إصلاحيِّين.
والنصارى يؤمنون بأن السيد المسيح قد أوجب عليهم أن يبشروا بالإنجيل ويحملوه إلى جميع الأمم «مرقس» (١٥٢) (علامات نهاية الزمان) وذلك لكي يجد السيد المسيح النصرانية هي السائدة في العالم. وبالتالي فقد كان على ضحايا «تسوماني» أن يتنصروا قبل الكارثة، أو يبقوا على ما هم فيه من إسلام أو بوذية أو وثنية فيهلكهوا، ويكونوا درسًا لسواهم.
أما المسلمون فإن المؤمنين منهم بعودة السيد المسيح الثانية، وبضرورة مجيء المهدى المنتظر قبلة فإنهم لا يختلفون كثيراً مع التصورات السابقة إلا بالتوقيت وبالضحايا فبعض هؤلاء كانوا يبشرون منذ سنة ٢٠٠٠م بأن السيد المسيح لا بد أن يسبقه «المهدى المنتظر» الذى يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً، والمهدى يحكم لسبع سنوات يملأ فيها الأرض عدلاً، ثم ينزل سيدنا عيسى ويصر على الصلاة خلف المهدى، لأن نزوله يصادف وقت صلاة الفجر بتوقيت دمشق التى سوف ينزل فيها على منارة بيضاء، وينزل من المنارة مباشرة إلى فناء المسجد فيجد الصلاة قد أقيمت، والإمام «المهدى» قد تقدم فإذا شعر بوجود عيسى تراجع، وطلب من عيسى أن يؤم الصلاة فيرفض عيسى ويقول: «بعضكم لبعض أئمّة»!! ويستندون فى ذلك على أحاديث وأخبار وآثار تحتاج إلى التصديق القرآني والهيمنة عليها. المهم: كانت فئات من هؤلاء تبشر وتكتب النشرات بالإنترنت وسواه منذ سنة ٢٠٠٠م بأن زمن المهدى قد أطل، وأن ظهوره يغلب أن يكون سنة (٢٠٠٤م أو ٢٠٠٥م)، فإذا حسبنا الفارق بيه وبين نزول المسيح، وهو سبع سنوات، فذلك يعنيى أن نزول المسيح لن يكون فيما يذهب إليه هؤلاء سنة (٢٠٠٧م)ـ أي: إنه لن يكون فى ولاية الرئيس چورچ ووكر بوش الثانية، بل ربما يكون ذلك فى ولاية «نيوتغرنكج» أو أي جمهوري آخر يبسط البساط الأحمر للسيد المسيح ولكن النصارى لا يؤمنون بما تؤمن به هذه الطائفة من المسلمين. ولذلك فإن «الجودوكريستيان» أو اليهود المسيحيين» لا يرون ما يمنع من مجيء المسيح قبل ذلك أو بعده بقليل. وأما اليهود فإن=

بالأديان الأخرى مظهرا من مظاهر الانحراف عن الدين كذلك، وأنَّ هذا الانحراف يغضب الخالق - تبارك وتعالى - فيحل على البشر ذلك الغضبُ بشكل «لعنة» فى مفهوم بعض الأديان، أو فى شكل بلاء

= المهم - عندهم - هو الحكم والنفوذ والسلطان. أما الدولة - عندهم - فهى قاعدة انطلاق ومقر قيادة، لكن النفوذ يجب أن يمتد ليشمل العالم - كله - فنحن نشهد - والحالة هذه - اتفاقًا لاهوتيًا عجيبًا هو أحوج ما يكون إلى دراسات تحليلية متعمقة تجلى لنا ما وراء هذا التوافق العجيب على ضرورة شيوع الفتن والحروب والزلازل والمجاعات والأوبئة. كل هذه المصائب العالمية الكبرى التى يتشم من كل منها رائحة الجريمة، يجب أن تسجل ضد مجاهيل. ويجرى تواطؤ لاهوتى عجيب على التعمية على أسبابها ومقدماتها، والدور الإنسانى والفعل الإنسانى فيها أو إيقافها سواء أكانت حروبًا أو عمليات إفساد فى البيئة، وتلويث فى البر والبحر والجو وثقب الأوزون، وتغيير طبيعة الأرض، والنظر إليها على أنها عدو نصارعه لنصرعه وندمره لكى يحقق الإنسان الغربى «التنمية الشاملة» ويعيش فى حالة علو فى الأرض. والنظر إلى الإنسان الغربى على أنه «نهاية التاريخ» من أكثر الأوهام البشرية دفعًا باتجاه الإفساد فى الأرض فلا تاريخ بعده. وهو نهاية التطور الإنسانى «السوبرمان» وكل ما عداه أنواع بشرية متدنية يكفى أن تقدم له الخامات والأيدى العاملة الرخيصة، وتتيح له فرصة التمتع بالفتات الذى يسمح للدورات الصناعية والتجارية أن تستمر بالعمل.

ما الذى ساعد على بروز هذه التصورات:

إن أبرز ما يلاحظه الباحث فى هذه الظاهرة من الأسباب - هو: الغبش والاضطراب فى إدراك مفهوم «اليوم الآخر» على حقيقته. وأنه اليوم الذى يبعث الله - تبارك اسمه وتعالى - الخلق للحساب والجزاء على ما قدموا فى هذه الحياة الدنيا. وأن تسميته «بيوم» ليس المراد منه أنه يقع داخل الزمن الذى نعيشه، لأنه مختلف تمامًا عن مفهوم «اليوم» وخارج عن مفهوم «الزمن» الدنيوى فهو لا يحدث إلا بعد «تكوير الشمس، وانكدار النجوم، وتسيير الجبال، وتسجير البحار، وانفطار السماء، وتفجير المحيطات والبحار، وبعثرة القبور. كما أنه يوم كألف سنة مما تعدون. وذلك يعنى أن هذا الزمن الذى نعيشه له =

وعذاب فى نظر البعض الآخر. ولعل ذلك ينبههم فيرجعوا عن ذنوبهم وخطاياهم وانحرافاتهم فتتوقف اللعنة أو تنتهى المأساة. وقد يرى البعض فى كل ما يحدث تهيئة لشىء أكبر سيئ أو حسن. ولا شك فى أن لهذا التصور ما قد يدل عليه، ولهذا التفسير للمأساة الإنسانية ما قد يعززه، ولكن كيف يصاغ ذلك؟

= نهاية حتمية، وغاية حددها الخالق - تبارك وتعالى - تنتهى بالفناء: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الحمن: ٢٦، ٢٧]. وبعد نهاية هذا الزمن تمامًا بما فيه ومن فيه. يجرى البعث وتبدأ الآخرة دار الحساب. والإيمان باليوم الآخر هو الركن الثانى من أركان الإيمان. وهو منطلق وقاعدة «المسؤولية بكل أنواعها». والإيمان به من أشق الأمور وأصعبها على العقل الإنسانى، والمشركون ينكرونه أشد الإنكار ويعجزون عن تصوره. والكتابيون الذين حرفوا ما أوحى إلى رسلهم وأنبياهم أدخلوا عليه من التصورات الوثنية والتغييرات ما جعله مفهومًا شديد الغموض، بالغ الاضطراب. ولا يتسع المجال - هنا - للدخول فى تفاصيل ذلك. ومن المفيد لمن شاء أن يعرف اضطراب أهل الكتب فى هذا أن يرجع إلى كتاب ابن حزم «**الفصل فى الملل والنحل**»، **وإرشاد الحيارى** لابن القيم **والجواب الصحيح** لابن تيمية **وإظهار الحق** «**والوحى المحمدى**» لرشيد رضا. وقد أعدت رسائل جامعية فى عقيدة البعث والجزاء» كثيرة، فليرجع إليها. لأن الذى يهمنا هنا أن نوضح القاعدة الفكرية التى انطلقت منها هذه التفسيرات اللاهوتية العجيبة!!!

فإذا عرفت أن منطلق هذه التفسيرات - هو الاضطراب فى فهم «الزمن واليوم الآخر، والفرق بين الحياة الدنيا والاخرة». فذلك يعنى أن مآل تصور أصحاب الاعتقادات المنحرفة أو الباطلة فى اليوم الآخر أن يقولوا بلسان المقال أو الحال: «**إن هى إلا حياتنا الدنيا**» والنتيجة الثانية: ﴿**وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ**﴾ [الأنعام: ٢٩] ﴿**زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**﴾ [التغابن: ٧]. والاعتقاد التوحيدى الصحيح باليوم الآخر: أن الحياة دار عمل وعمل وعمل، وأن الدار الآخرة - وحدها - هى دار الجزاء والحساب والثواب والعقاب. ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ١٠٥]. =

إن لهذا التفسير عدة صياغات لعل أهمها الصياغة «العمرانيَّة». وهذه الصياغة لا يقف الباحثون المعاصرون عندها طويّلا، وإن هم فعلوا فإنَّهم يمسُّون بعض أجزائها من اقتصاد أو سياسة أو اجتماع أو تربية أو

= إذًا: فاضطراب الاعتقاد في اليوم الآخر أدى إلى القول بـ «نهاية التاريخ». وأن الجنة والنار أرضيتان فالفردوس «هو فردوس دنيوى يحدث بشكل خضوع العالم ـ كله ـ إلى مملكة واحدة بهيمنتها تنتهى الثنائيات، والصراع والتدافع)فمملكة صهيون ـ ومملكة المخلص المسيح ـ ومملكة المخلص المهدى المنتظر ـ وفردوس الاشتراكية، واليوتوبيا التكنولوجية) وكل هذه الجنان المفتعلة جنان أرضية تحدث فى الزمن» بمفهومه الأرضى») **الموسوعة اليهودية** (١/ ٨/ مدخل نهاية التاريخ بتصرف «والنظم والحلولية (اللاهوتية منها والمادية الوضعية) نظم مغلقة تفضى إلى القول بنهاية التاريخ، ففى «وحدة الوجود اللاهوتية» يحل الإله فى الطبيعة، وفى الإنسان، فيستوعبهما فى ذاته، ويصبح كل شيء تعبيرًا عن الإله، وتجسيدًا له (ولا موجود إلا هو أو ما فى الجنة إلا هو فينتهى التاريخ، ويلغى الزمن ويتحول إلى دورات متكررة تعاقبية.. وأما فى «وحدة الوجود المادية» فإنّ الإله يحل فى الإنسان والطبيعة ويستوعب هو فيهما، ويصبح لا وجود للإله إلا بظهوره من خلالهما، والإنسان والطبيعة يتمثلان الإله ويحولانه إلى مجموعة من القوانين منها «قوانين الطبيعة والمادة» و«قانون الحركة» و«قانون الصيرورة» ويصير كل شيء مسيرًا بهذه القوانين.. فمن أحاط علمًا بهذه القوانين بلغ المعرفة التى تمكنه من التحكم فى العالم، وفى إنهاء التاريخ الإنسانى والزمان، وفى بدء التاريخ الطبيعى وتأسيس الفردوس الأرضى. (الموسوعة اليهودية) وهكذا الموضوع نفسه يفقد «الإنسان والفعل الزمن قيمته ويصبح المخلص ضرورة وحتمية فى الرؤية اللاهوتية وفى الرؤية المادية. أما «الرؤية الإسلامية التوحيدية» فهى مغايرة لهذه الرؤى جميعها. لا تتسع لأى منها بحال: وبالتالى فلا بد للإنسان إذا رأى الظواهر المماثلة أن يدرك أن هنالك خللاً ما قد حدث، فظهور التلوث والفساد فى البر والبحر والجو لم يحدث بدون أسباب، وممارسات إنسانية خاطئة، ومثلها قضايا الفتن والحروب والصرعات. وثقب الأوزون والتغيرات البيئية والجوية تحدث بالتضاد مع السنن الإلهيّة وبما كسبت أيدى الناس. =

أخلاق، وحتى أولئك الذين يلاحظونها فى مجملها أو كليَّتها فإنهم لا يتناولونها التناول الشامل، ولا يربطون بإحكام بينها وبين الدين، وبينها وبين التوحيد بخاصة، بوصفه أساسًا ومنطلقًا للإيمان والعمران.

= وللتجارب النووية والهايدروجينية، والأسلحة الكيماوية والبايلوجية أثمان باهضة تدفعها البشرية كلها من صحتها، وسلامة بيئتها. ومثل ذلك إغراق حاملات النفايات النووية فى المحيطات، أو دفنها فى الصحاري. . فهذه ـ كلها ـ خارجة تمامًا عن إطار التفسيرات اللاهوتية.

ولقائل أن يقول: وماذا عن آيات قرآنية كريمة ربطت بين ظلم الأمم وانحرافاتها وهلاكها، وكذلك أحاديث صحيحة فسرت كثيرًا من الآيات التى تحدثت عن مصائر الأمم والقرى التى عصت أنبياءها فأهلكها الله تعالى فإن الأنبياء كافة كانوا ينهون الأمم عن الفساد فى الأرض: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾ [الأعراف: ٨٥] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]. . ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؟!

والقرآن يفسر بعضه بعضًا فقوله تعالى فى هذه الآية: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. مفسر بآية الروم وذلك يعنى أن الإنسان الذى عاهد الله على التوحيد وتزكية نفسه وإعمار الأرض قد نقض العهد فأشرك أو الحد ففقد «البوصلة الهادية» ولم يزك نفسه، ففقد أهليته للوفاء بالعهد، والقيام بمهمة الاستخلاف فحقق مخاوف الملائكة الذين ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وتخلى عن الأمانة التي حملها مختارًا. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢]. فلم يؤد حقها، ولم يأبه بالكون الذى أؤتمن عليه، ولم يصلح فيه، ولم يقم بما يقتضيه حق العمران. فلابد أن يعم الفساد والشرور البلاد، ويتمرد الكون عليه، وتنقلب الطبيعة ضده. وهو أي الإنسان أولا وآخرًا المسئول «بمجموعه، وبمعنى الإنسانية فيه» عن ذلك كله. =

ولذلك فقد غلبت الصياغة «اللّاهوتية» فى التفسير، وفى اقتراح الخلاص لاهوتيًا كذلك. والصياغة «اللاهوتيَّة» من شأنها أن تخلط فى الكثير الغالب بين ما هو وحى إلهىٌّ منزل صادر عن الإله الأزلىّ الأحد - الذى أعطاه أقصى درجات الإطلاق والإحكام، وما بين نسبيَّة البشر من مفسِّرين ومؤولين، ولغويّين تتحكم بيئاتهم التاريخيَّة فى المنتج المعرفىّ الذى يصلون إليه، أو يستنبطونه ويحملون الوحى عليه مهما حاولوا التجرُّد فى مقاربتهم للنصوص الموحاة، حيث إنَّ هناك الكثير من المؤثِّرات التى تحيط بالباحث قد لا يتنبَّه إليها، لكنَّه لا يستطيع التحرُّر منها؛ لأنَّها مثبتة فى الثقافة، ومترسخة كامنة فى التقاليد والأعراف، والمدلولات اللُّغويَّة، وما إليها، إضافة إلى تداخل الموروثات الدينيَّة بعضها ببعض، هذه التداخلات التى تصل أحيانا حد صعوبة التمييز بينها، فالموروث المسيحى وتداخله مع الموروث اليهودىّ لا يحتاج من يريد إثبات ذلك التداخل إلى كبير عناء، فالعهدان القديم والجديد يمثلان لدى «البيورتنت»(١٧) المتطهرين!! مرجعًا واحدًا، ولذلك فإنَّهم يفضلون

= ونسبة بعض الظواهر للخالق تعالى فى بعض الآيات والأحاديث الصحيحة - هى: لتذكير الإنسان بالحضور الإلهى باستمرار، لئلا يقع فى خطأ الإحساس بهيمنة الأسباب المادية على سبيل الإطلاق وعلى كل شىء، وينسى الدور الإلهى - أى: دور خالق الإنسان والكون والحياة، فيقع فى حالة الإلحاد أو الشرك أو الحلول، أو الإيمان بقدرته المطلقة، من دون الله تعالى على التصرف فى الكون.

(١٧) أولئك المتدنيون الأصوليون البيض الذين هيمنت على عقولهم فى القرن السادس عشرة فكرة الاتحاد أو التداخل بين الأساسيات اليهودية والمسيحية فاعتبروا أنفسهم =

أن يطلقوا على أنفسهم: أنَّهم «اليهود المسيحيُّون». وقد حجبت هذه التداخلات الموروثة والمتعاقبة الكثير من الفوارق المنهجيَّة بين الأديان، ومنها جوانب من تراث المسلمين الذى تداخلت معه وفيه كثير من «الإسرائيليات» بحيث أصبح ذلك جزءًا يصعب تمييزه عن التراث الإسلامىّ الذى بُنى حول «الخطاب القرآنى». ومع أنَّ القرآن قد قام بنقد ذلك التراث وتمحيصه ثم التصديق عليه والهيمنة على جوانبه ـ كلها ـ لتصحيح مسار الدين عقيدة وعبادة وشريعة ونظام سلوك وأخلاقا ومعاملات، بيد أن تفسيرات أهل التفسير وتأويلات أهل التأويل قد ضمت كثيرًا من التراث الإسرائيلىّ لأسباب كثيرة (لا يتسع المجال لتفصيلها هنا، وقد تناولناها فى حلقات أخرى من هذه السلسلة). ولعل من أهمِّها توهم التشابه بين موضوعات وقضايا «الخطاب القرآنىّ» وموضوعات الكتب الأخرى، فأسقطت على تفسيره وتأويلاته الاتجاهات التلموديَّة واللاهوتيَّة فى التفسير والتأويل، ظنا من المفسِّرين والمؤوّلين أنَّ التشابه فى الموضوع يسوغ التشابه فى التفسير والتأويل. [18] فنقلوا من تفاسيرهم وتأويلاتهم كثيرا.

= جزءًا من شعب الله المختار، وجعلوا من ملك بريطانيا الذى اضطهد بعضهم، وهو «جيمس الأول» فرعونًا جديدًا وبريطانيا Egibt الجديدة وأمريكا أو العالم الجديد هى أرض الميعاد الجديدة، والمحيط الذى عبروه إليها هو البحر الأحمر الذى أنفلق لعبورهم.

(١٨) هناك نظرية شاعت بين المتخصصين فى دراسات «مقارنة الأديان» فى الغرب، مفادها: تأثير دين فى آخر اعتمادًا على ملاحظة عامل التسلسل التاريخى وقد حاولوا بهذه=

ضرورة بذل الجهود المعرفية لتنقية التراث

إن تجريد المعارف الدينيّة التى بناها علماء المسلمين حول «الخطاب القرآنى» مما لحق بها، وكذلك نصوص الكتب السابقة اهتداء بالتصديق والهيمنة القرآنيّين، صار يتطلب جهداً معرفيّا كبيرًا ومتنوعًا.

= النظرية تفسير التشابه الذى لا ينكر بين رسالات الأنبياء والمرسلين، وهذه النظرية لا تجد لها سندًا فى القرآن المجيد. فالقرآن يؤكد مبدأ «وحدة الدين» و«وحدة الأنبياء» ومن البديهى أن مصدر الدين الواحد ـ هو الله تعالى ـ كما أن اصطفاء الأنبياء والمرسلين شأن اختص الله ـ تعالى ـ به وهذه الوحدة لا تعنى ما فهمه أولئك من أن الإسلام دين ملفق من اليهودية والنصرانية فقد أساءوا الفهم وحرموا الإنصاف. ولو درسوا الإسلام من مصدره المنشىء: القرآن المجيد، ومصدره المبين السنة لأدركوا العلاقة السليمة إدراكًا صحيحًا، ولعلموا أن القرآن مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيمن عليه. ومستوعب للثابت المشترك بين الرسالات، ومتجاوز للمتغير: إن القرآن المجيد بتصديقه على الكتاب السابقة فى نزولها قد راجع ما فيها، وميز الموحى من الله منها عن الذى أضافه أهل تلك الكتب أو ضيعوه من الذين «نسوا حظًا مما ذكروا به، والذين يحرفون الكلم عن مواضعه..» ولو أدرك علماء اللاهوت هذه الحقيقة لأحدثت فى سائر علوم اللاهوت ثورة هائلة، ولاستغنوا عن كثير من النقد الذى لم يغن عنهم شيئًا، وربما وفروا جهودهم فى تأسيس علم «الهرمونيطيقا The hermeneutics» ولقادهم القرآن قيادة الرائد الذى لا يكذب أهله إلى الهدى ودين الحق الإلهى دين القيم المشتركة التى تستطيع أن توقف البشرية على صعيد هدى واحد بدلاً من البحث عن تأسيس «منظمة لوحدة الأديان» لن يكون دورها أفضل من أدوار المنظمات الدولية القاصرة. وراجع «التحرير والتنوير ٦/ ٢٢١» وفصولاً من كتاب «الظاهرة القرآنية»، لمالك بن نبى، منها «الحركة النبوية» و«الوحدة الشرعيّة» و«العلاقة بين القرآن والكتاب المقدس»، وكتاب موريس بوكاى «الكتب المقدسة والعلم» وكتاب ابنتنا رقية «أثر العرف فى فهم النصوص» قضايا المرأة أنموذجًا. هامش ص ١٢ دمشق: دار الفكر ـ ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

إن هذا البناء المشوه للفكر البشرىّ الدينىّ الذى لم يسلم أىّ تراث دينىّ من آثاره أدى إلى خلافات خطيرة سرعان ما تحولت إلى صراعات فكريَّة مذهبيَّة وطائفيَّة ودينيَّة بين حملة الأديان المختلفة، وانقسامات داخل الذين يدينون بالدين الواحد، وانشطارات داخل الفرق والطوائف. فإذا أضيف إلى ذلك ما سنأتى على توضيح بعض معالمه من تفكيك «الحداثة» وما بعد الحداثة «للمسلَّمات الدينيَّة»، نستطيع أن ندرك ـ آنذاك ـ أن خروج الإنسان من الأزمات، وتجاوزه للمآسى المحيطة به، وخلاصه من ذلك ـ كلّه ـ لم يعد من الممكن أن يكون خلاصًا دينيًا لاهوتيّا وبمنطلق ومنطق لاهوتيِّين، بل يمكن القول بأن بعض «التراث الدينىّ» قد صار معرقلا ومعيقا لأىّ وسائل خلاص، إن وجدت سواء على المستوى العالمى، أو على المستوى المحلىّ، أو الإقليمىّ.

١ ـ وإذا كانت «الصياغات الّلاهوتيَّة» لمعالجة الأزمات الإنسانيَّة لم تعد قادرة إلا على الإضافة إليها والزيادة فيها فذلك لا يعنى أن الذين حصروا «الخلاص الإنسانىّ» بتحويل الإنسان نفسه إلى «مركز للكون» يتمركز حول نفسه، ويجعل منها ذاتا ومن كل ما عداها هامشا سيكونون أقل عجزا عن مواجهة هذه الأزمات الإنسانيَّة والمآسى المترتِّبة عليها من حملة الّلاهوت والفكر المنبثق عنه.

«فالنزعة الوضعيَّة «positivism» قد حالت دون إيجاد حلول للأزمات الإنسانيّة. فقد قاوم الوضعيُّون كل ما هو غيبىٌّ بحسبانه غير

مرئىٍّ، وغير قابل للإدراك، حتى وجود الخالق رفضوه للسبب نفسه، كما رفضوا كل ما هو فوق الطبيعة أو ما يعد «ماورائيًا» لا يخضع للتجربة، ولا يدرك بالحس؛ فهم يمثّلون رد فعل متطرفا ضد الاستلاب اللّاهوتىّ أو الدينىّ بصفة عامة، وتحت هذا النوع من الضغط حصروا خلاص الإنسان فى دائرة ذاته، أو فى دائرة «الجدليَّة الماديَّة» وما رتّبوه عليها من حتميّات تاريخيَّة.

وهؤلاء بعد أن ركزوا على تعليق قضايا الخلاص الإنسانى للذات الإنسانية حول نفسها، سارعوا بتبنّى «الليبرالية "liberalism"» إطارا لإطلاق حيوانيّة الإنسان وإشباع رغباته كلها دون قيود، فاستظهرت اللّيبرالية وتأصّلت «بالفردية individualism»، ثم سوغت «الفردية» «بالنفعيَّة utilitarianism»وأصّلت «النفعيّة» بالنزعة «الأدائيّة والأداتيّة أو العمليّة» واتخذت هذه النزعة «الآليّة أو الأداتيّة« instrumental» نهجًا لتحقيقها.

الديمقراطية والحل

وأمام مضاعفات «إطلاق الفرديَّة» وما أدت إليه من اغتراب وتفكيك وصراعات برزت «الديمقراطيَّة democracy» بحسبانها حلا موهومًا أو مفترضًا فى مجال «تقنين الصراع» واستيعاب القوى الجديدة، التى يفرزها المجتمع، فلم تكن «الديمقراطية» وليس من طبيعتها أن تكون

حلا للأزمات الإنسانيَّة، أو وسيلة للقضاء على الصراعات، وتوجيه البشرية للدخول فى السلم كافة فى سائر جوانب نظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، إذ إن مهمتها فقط الحيلولة دون تفجر العلاقات بين أبناء المجتمع الواحد، واحتواء التناقضات بين فئاته وعناصره من خلال تقنين الصراع، واستيعاب القوى الجديدة فى المجتمع. وهذا الاستيعاب كثيراً ما يتم بشكل وهمىّ!! حيث يخيَّل للإنسان فى الإطار الديمقراطىّ أنّه شارك فى صنع القرار بمجرَّد أن أدلى بصوته، أو عبَّر عن نفسه. والتعبير عن النفس شىء، والمشاركة فى صنع القرار شىء آخر. والمعطيات التى تؤثر فى صنع القرار كثيرة متعدّدة. ولذلك فإنّ كثيراً من الرؤساء يجدون أنفسهم شاءوا أم أبوا عاجزين عن الالتزام بما أعلنوه فى برامجهم المعروضة على الناخبين، ولا يملكون، ولا يملك منتخبوهم شيئًا. لقد تحول الإنسان من خلال «الديمقراطيَّة» إلى أداة إنتاج واستهلاك يدار ـ ديمقراطيًا ـ وبرضاه التام بواسطة طبقة مهيمنة متعالية تتبادل هذه الإدارة بشكل يستلفت النظر، وبوصفها أحزابا سياسية أوجدتها الشعوب للتعبير عن إرادتها. وإن كانت قد انبثقت فى بادئ الأمر عن الشركات الكبرى. وبذلك تحول «المذهب الإنسانى» الذى أقيم على «مركزية الإنسان» إلى مجرد شكل أو شعار زاد فى مآسى الإنسان ومعاناته واغترابه، وجعله يدور حول ذاته منقطعًا عن ربِّه، وعن محيطه وجذوره، فاقدا لكل ما كان يربطه بكينونته الإنسانيَّة أو علاقاته العائليَّة أو تاريخه أو جذوره الحضاريَّة.

وبذلك وجد الإنسان نفسه يتخبط فى «عبثيَّة وجوديَّة» تلقى به إلى مجاهل «الفراغ العدمىّ» الذى جعله لا يبالى بشىء ولا يهمه أن يدرك شيئًا، فهو لا يدرى أكثر من أنه لا يدرى إذا توافر له الطعام والجنس. ودراسة أحوال الشعوب التى يسودها هذا النظام كفيلة بإبراز هذه الحقيقة المرّة. وإن تبجح قادتها بخلاف ذلك.

إنّ شخصية مثل هذه إن كانت قد بقى لها من مكونات الشخصية أو الكينونة الإنسانية شىء فهى مستلبة الوجود تماماً.(١٩)

الإنسان حيوان إعلامىّ

لذلك فقد جعلت الأنظمة المختلفة من الإنسان «حيوانا إعلاميا» تفرّغه من مقوّمات كينونته، وعناصر شخصيَّته لتشخص له كل شىء إعلاميّا بكل ما لديها من وسائل وأجهزة إعلاميَّة، فهو لا يشحن أو تبنى شخصيَّته تربويّا ولا حضاريّا، ولا دينيّا، بل إعلاميّا؛ لأنّه بالإعلام يسخّر لخدمة النظام والأيدى الظاهرة والخفية فيه التى يدار الإنسان بها. فهو إنسان يدور بين ساقيتى الإنتاج والاستهلاك وقيادة الإعلام. أينما توجهه ـ خارج ذلك ـ لا يأت بخير، إلا ما يفرضه الثلاثىُّ المذكور، ومع ذلك يخيَّل إليه أنَّه شريك فعلىٌّ أو مساهم حقيقىٌّ فى القرار السياسىّ من خلال ذلك الصوت الذى يدلى به فى مواسم الانتخابات.

(١٩) ننصح بالاطلاع على كتاب ديفى طريف **«الحرية والاغتراب»** المنشور بالقاهرة.

وحين تجد الطبقة المتحكمة ضرورة لتجاوزه فما أكثر الطرق التى تستطيع أن تسلكها لتحقيق ذلك!! والوضع الأمريكىّ الراهن نموذج لذلك. حيث جرى تمرير الكثير من الإجراءات والقوانين المناقضة للديمقراطيَّة بكل معانيها القديمة والحديثة تحت ضغط الماكينة الإعلاميَّة بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر وما كان لشىء منها أن يمر لولا ذلك.

٢ ـ هناك الفريق الثالث الذى اختار أتباعه للخلاص الإنسانى سبيلا آخر، حيث توهموا وجود الخلاص فى دائرة «الحتميّات التاريخيّة» و «الماديَّة الجدليّة» التى زعموا أنَّهم اكتشفوها والتى تمر من أقنية «الصراع الطبقىّ» وهؤلاء لم يكونوا أقل استلاباً للإنسان من اللِّيبراليين والرأسماليّين؛ فقد جردوا الإنسان ـ كذلك ـ من كينونته ووضعوه فى إطار نمطيَّة أحاديّة مبوتقة لا تتصل بتاريخ الإنسان ولا بواقعه ولا مستقبله إلا من خلال الحزب المعبِّر عن مصالح الشعوب فى إطار الطبقة والحزب وحدهما، وقد قطعت علاقة إنسانها بالتاريخ كلّه وبالحضارات الإنسانيَّة كافَّة، وجعلتها علاقة رفض ولعن وتحقير لها، فكلها حضارات طبقيَّة لم تأخذ «الشغيلة» فيها نصيبا، وكل تلك الحضارات صنعها الجلادون وأعداء الشعوب، والإقطاعيُّون، ومن إليهم من البورجوازيِّين. وكل دين هو أفيون معيق لتحرير الشعوب، فتجب محاصرة الأديان والقضاء عليها، وتحويل معابدها إلى ملاه ومراقص، ومتاحف إن أمكن، ويمكن للفنون من رقص وغناء ونحت ورسم وغيرها أن تلبى الحاجات النفسيّة

والروحيّة لمن يجد فى نفسه حاجة لذلك. وبلا مواربة وبعد خمس وسبعين عاما أعلن أصحاب هذه الأطروحة موتها وفشلها. وارتدت تلك «الحتميات التاريخيّة» و «الماديَّة الجدليّة» على أصحابها بالخسران والخذلان، وتفكَّك الحزب والإمبراطوريَّة التى أقامها، قبل أن يبنى الحزب جنَّته الأرضيَّة ليعيش فيها مجتمع الرفاهيَّة الذى وعد الناس به. وحين تهاوت تلك الأطروحة سرعان ما عادت إلى الظهور داخل الاتحاد السوڤييتى المقبور العصبيَّات القوميَّة، والأصول العرقيّة والطائفيّة والدينيّة لتعلن أن النظريَّات التى قامت على «الماديَّة الجدليّة» و «الحتميّات التاريخيّة» لم تستطع استئصالها أو تغييرها لكنَّها كمنت تحت سيف القهر، وحين وجدت فرصة للظهور المجدّد لم تتردد فى اغتنامها لتعلن أنها كانت أقوى من تلك النظريَّات التى زعموا أنها نظريّات خلاص.

ماذا عن أمتنا؟

إن شعوب أمتنا فى جملتها تصنَّف فيما يعرف بـ«العالم الثالث» على تفاوت محدود فى تلك الثالثيَّة. والأزمات والمآسى التى ترزح تحتها تمثل ضعف ما يجتاح عالم اليوم من مآسٍ وأزمات، ذلك أنها ترزح تحت مشكلات عالم ما قبل الصناعة التى ترجِع إلى ما يعرف بـ«التخلّف» فهى أكثر شعوب العالم تخلفا بمعايير التقدم الصناعى والتقنى والعلمى والتنموى. كما أنها لم تنس نصيبها من أزماتها الخاصة بها التى تحدرت إليها من ماضيها وبعض الجوانب السلبية من تراثها. ولم يخفف من

وطأة تلك الأزمات ماضيها المجيد ولا كونها صانعة الحضارات الإنسانية التاريخية فى وادى الرافدين ووادى النيل وبلاد الشام والصين والهند وفارس واليمن، وأنها ـ بعد الإسلام ـ قد قدمت حضارة كان لها أثرها الحميد فى تسديد مسيرة البشرية، وإرساء الدعائم التى مهدت لهذه الحضارة التى صارت تعرف بـ«الغربية».

إننا نقولها وكلنا حسرة: إن أمتنا فى حالة سبات عميق لم تستيقظ منه بعد، ولم تسلك للنهوض سبيّلا، ولا تزال عاجزة عن الفعل، وتعيش حالة «ردود الأفعال» الناجمة عن الصدمات التى تصنعها وتبلورها الحضارة القائمة، الأوروبيّة ـ الأمريكية، ولم ترتق بعد إلى حالة «الفعل» إذ لم تتوافر فيها شروط الفعل بعد، ففقدت الفاعليّة. وقياداتها ـ بمستوياتها المختلفة ـ أفرزتها تلك الصدمات: فكانت قشرة أو فئة أو طبقة فوقية صغيرة توزعت وانتمت إلى الخيارات الغربيَّة فى الخلاص فى خريطتها العامة: فكان منها اللّيبرالى والماركسىّ والرأسمالى والثورى والاشتراكىّ والانقلابىّ العسكرى، أو الانقلابى الحزبىّ، وكذلك الدكتاتورىّ.

فكانت تلك الخيارات منبتَّة منقطعة زادت فى أزمات الأمة، فهى لم تنبع من تفاعل مبدع مع قضايا الأمة. وجل ما حدث فى داخل تلك المجتمعات، وانبثق عنها، لم يكن من الفاعلية بحيث يؤدى إلى تطوير طبيعى فيها فبقيت حتى اليوم فى افتقار شديد للقواعد الفكريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لتستند إليها وتبلور تجاربها، وتفجر طاقاتها، وتنمى أفكارها، وتنتقل بها إلى حالة الإبداع الضروريَّة لأىّ نهضة.

وقد عانت مجتمعاتنا ـ ولا تزال تعانى ـ من التناقض الحاد بين القيم الغربية التى أفرزتها الحضارة الغربيَّة المهيمنة، وعملت النخب الفوقيّة الحاكمة والمساعدة لها على غرسها وتبنِّيها وفرضها من عل على مجتمعاتنا[٢٠] وبين مؤثِّرات وبقايا الأنساق الحضارية المغايرة، والموروثات الأسيديولوجيَّة والإدراكيّة المتأصّلة فى ثقافتها، بحيث صارت ثقافة وأعرافا وتقاليد ليس من اليسير على شعب مفارقتها بالأوامر والإجراءات الفوقيَّة، وهم يحاولون الآن استيعاب الأمة واحتواءها فى إطار «العولمة» المعاصرة ليفرضوا عليها خيارات الخلاص وفق مقاييس ومواصفات هذه العولمة المعاصرة التى تقودها أمريكا، وذلك بعد أن فرضوا عليها عولمة سابقة قادها الاستعمار الأوروبى التقليدى فأدخلت إليها ليبرالية زائفة انتهت بدكتاتوريات الأحزاب والعسكر والقبائل والطوائف. وأضفت شرعيّة زائفة على العسف والاضطهاد بألوانه المختلفة.

العولمة وما تعنيه

إن «العولمة» المعاصرة وإن بدت كما لو كانت عولمة اقتصادية فقط ـ لكنَّها ـ فى الواقع تعنى ـ هذه المرة ـ الاستتباع والإلحاق بنظام عالمىّ له

(٢٠) إن عمليات «التحديث» فى مجتمعتنا كانت وسائل تدمير لبناها التحتية، وبعض المتبقى لديها من قيم موروثة، وفشلها لم يعد يحتاج إلى دليل، وهذه ـ وحدها ـ تحتاج إلى جملة من الدراسات لتكشف عما لحق بالأمة من خسائر وآثار خطيرة نتيجة تلك العمليات التحديثية المرتجلة.

مؤسّساته الدوليّة سياسيّا واقتصاديّا وأمنيّا وتربويّا وفكريّا وحضاريّا بل والمؤسَّسات الدينيَّة كذلك. وقد منحت هذه المؤسَّسات للعولمة شرعيّتها، وأخذت من هذه المؤسَّسات تفويضًا تامًا بتغيير قيم العالم ونظمه وقياداته، بل صارت هذه المؤسسات أداتها ووسيلتها فى إحداث تلك التغييرات القسريّة.

ولم تعد «العولمة المعاصرة» تقبل من الآخرين مجرد القبول بها، أو الانفتاح عليها، ثم التداخل الاقتصادىّ معها، لكنّها تصر على أن تعيد تشكيل أنظمة الشعوب والأمم الأخرى على صورتها، وتلحقها بها إلحاقًا عضويّا ليكون «الاستتباع» عضويًا كاملًا غير منقوص لا يفرق فيه بين السياسىّ والاقتصادىّ والتعليمىّ والثقافىّ والفنىّ والحضارىّ. وعمليّات الاستتباع الثقافىّ والحضارىّ لا ترحم، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة من موروثات الشعوب الحضاريّة والمعرفيّة إلّا قامت بتفكيكها، وبخاصة تلك الموروثات التى تقرر قيادة العولمة أنّها قد تشكل عقبات ربما تحول دون تقبل هذه الشعوب لعمليات الاندماج فى العولمة. ويتم هذا الاحتواء بعمليات جراحية كبيرة أو بسيطة تدعى «عمليات صراع الحضارات أو صدامها» ومنطق صدام الحضارات أو صراعها لا يفرق بين حضارة غائبة وحضارة قائمة ما دام لها بشر لا يزالون يعلنون الانتماء إليها. ويتضافر مع صراع أو صدام الحضارات أطروحات أخرى فرعية كثيرة نعايشها اليوم فى كل أنحاء العالم، وسيؤدى ذلك كله إلى احتواء

ليبرالىّ لهذه الحضارات والثقافات وشعوبها، وذلك لأن منطق اللّيبرالية جعلها تؤمن بأنَّها «نهاية التاريخ»(٢١).

الارتداد إلى الموروث

والخطر الداهم ـ الآن ـ أن شعوبنا لم تعد تملك سوى تراثها وموروثها الحضارى والدينى المنحدر إليها من أسلافها، وهو التراث الذى صاغه الأسلاف بطرائق إدراك ومعرفة خاصة عائدة إلى المكونات التاريخيَّة لذلك الموروث. وهو فى سائر الأحوال له وعليه، وهنا مكمن الخطر إذ ستجد الأمة نفسها مسوقة دون اختيار للاحتماء بموروثاتها الحضاريَّة والمذهبيَّة والثقافيَّة والأيديولوچيَّة دفاعًا عن النفس، ودون تمييز أو نقد أو تجديد أو تمحيص، وهنا سوف تدخل الأمَّة فى حالة تعصُّب لموروثاتها بالحق وغيره، وهذه الحالة تجعلها فى نظر العولمة أكثر تطرفًا وأصولية أو إرهابية إن أمكن هذا من وجهة نظرهم هم.

أما من وجهة نظرنا، فإن الخطر فى ذلك الارتداد غير المنظَّم إلى الماضى هو فى أنّه سيحمل شعوبنا فى رجعتها هذه إلى الموروث على التوقف عن المراجعة وتجميد سائر حواس النقد ووسائله ـ إن وجدت ـ وتوقيف أىّ ممارسات تجديدية داخلية ـ إن وجدت ـ إذ لا صوت يعلو

(٢١) أى: أنها وصلت أعلى مستوى يمكن للإنسان أن يصله، فلن يجد التاريخ ما يسجله بعد ذلك. وراجع موسوعة اليهود واليهودية (١/ ٣٣٧ـ٣٣٨) وتأمل فى الهامش (١٧) من هذه الدراسة.

حينئذ على صوت معركة الدفاع عن النفس: فتصبح محاولات «التجديد النوعى الداخلى» على ضعفها وقلتها بدعة من البدع أو تواطؤاً مع قيادة العولمة، وفى أقل الأحوال تبعيَّة واستحسانًا لبدائل العولمة: وتفقد الشعوب آنذاك القدرة على التمييز بين عناصر التحصُّن الداخلىّ، وقوى الهجوم الخارجىّ فتدخل حالة «الفتنة التى تذر الحليم حيران».

وهكذا تبدو مشكلة «الخلاص الإنسانى» أزمة مستفحلة وشاملة للمتقدم وللمتخلف، فللتقدم أزماته وللتخلف أزماته كذلك. ويستوى فى العجز عن تحقيق «الخلاص الإنسانى» الفريقان الفاعل والمنفعل.

فهل يكون الحل علميّا؟

لاشك فى أن العلم قد تقدم كثيراً، وتطور وارتاد آفاقا تجاوزت الطموح الإنسانى، وقد أصبح على مشارف اكتشاف «الكونيَّة» بكينونتها وعناصرها. ولاشك فى أن «الكونية» المهتدية تحمل الحل. لكن البيئة الغربية الأمريكية والأوروبية التى يعيش العلم ويتطور فيها وفى مؤسساتها لم تمكنه من الكشف عن القيمة الكونيَّة للإنسان، والقيمة الإلهية للوجود فى تطورها العلمىّ والفكرىّ والمعرفىّ.

واللّاهوت لم يمارس تجديداً نوعيّا يمكِّنه من المساعدة على ذلك، والإسلام لم يكتشفوه بعد إلا من خلال أنظمة مهترئة، وأمثال بن لادن وچون محمد وصدام ومن إليهم، ولا يزالون يتعايشون مع تاريخ

المسلمين فى أثناء الحروب الصليبيَّة، وحروب الدولة العثمانيَّة والأندلس، ويقيسون الإسلام على ذلك. وحاضر العالم الإسلامى لم يتمكن ولم يسمح لأسباب كثيرة بصياغة «الخطاب الإسلامى التجديدىّ» ولا يملك القدرة على ذلك حاليًا. وقد لا يرى كثير من الدعاة ضرورة لذلك التجديد النوعىّ، فلا غرابة فى أن يلجأ كثير من اللّاهوتيين فى الغرب إلى الترويج للعودة الثانية للسيد المسيح، وقد يحدد بعضهم سنة سبع بعد الألفين موعدا لنزوله، أو ما بين سبع وتسع احتياطًا لينتهى التاريخ (بالمخلص والأبناء الذين يحبهم). فى حين يسود شعور فى بعض الأوساط الإسلامية (بأن المهدى قد أطل موعد ظهوره)، وأن ذلك قد يكون عام ٢٠٠٥م [٢٢]، وهكذا تتعاضد وتتظاهر المتداخلات اللّاهوتيَّة بين المتخصصين فى الأديان على تدعيم وتعزيز أفكار مشتركة فى الجذور وإن اختلفت فى المظاهر والانعكاسات والتأثيرات.

أين الخلاص؟

لقد تبين مما قدمنا أن العالم ـ كلّه ـ اليوم يبحث عن «الخلاص الكلىّ»، وهذا «الخلاص الكلىّ» يتعذر أن تأتى به القوميّة العنصريّة أو الطبقيّة أو الحزبيّة أو الطائفيَّة أو الإقليميّة أو اللّاهوتيّة المتعصّبة أو

(٢٢) ثم ينزل المسيح بعد ذلك. ويبدو أن مؤلفى «المفبركان الباطل» أطلقوا اسم «الصفى» باعتباره المتلقى لهذا «المفبركان الباطل» واسم «المهدى» باعتباره من ترجم معانيه. وتأمل هامش (١٧) فى هذه الدراسة.

الليبراليّة، أو الجدليَّة الماديّة والصراع الطبقى والحتميات التاريخيّة، أو أىّ طرح حصرىّ أو أحادىٍّ ذاتِّى التكوين. ولا يمكن أن تأتى به «الديمقراطيَّة» و «العولمة» فى طرحها الحالى: فالوضع العالمى الراهن لا يمكن أن يتقبل إلا حلولا وبدائل قادرة على تقديم نفسها علميًا وعالميًا؛ بحيث لا يكون طرف يفرض، وطرف عليه أن يتقبل ويستجيب، وفى الوقت نفسه تكون قادرة على استيعاب وتجاوز فلسفات الأرض ومناهجها كافَّة. وليس هناك مصدر غير القرآن الكريم المحفوظ، المكنون، الهادى للتى هى أقوم يستطيع تحقيق هذين البعدين - معًا - أعنى عالميَّة الحلول والبدائل والمعالجات وشموليَّة المنهج المعرفىّ، وقدراته الهائلة على التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز.

فالقرآن بخصائصه - ولا مصدر سواه - يستطيع أن يقوم بالتصديق والمراجعة ثم الهيمنة على سائر المناهج المطروحة، وإعادة صياغاتها ضمن منهجه الكونى. والقرآن - وحده - وبتصديقه وهيمنته قادر على استيعاب تلك المناهج وإصلاحها وتنقيتها وترقيتها ثم تجاوز السلبىّ منه والاحتفاظ بالإيجابىّ. فالقرآن هو الأقدر على أن يعالج بمنهجيته القائمة على «الجمع بين القراءتين»[٢٣] مشكلات الوجود الإنسانى وأزماته الفكريَّة والحضاريَّة، ويدخل الناس كافَّة حالة السلم.

(٢٣) سنأتى على تفصيلها فى الحلقة الثانية من هذه السلسلة.

إن القرآن ﴿لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[الواقعة: ٧٩]، والمطهّرون هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وعهد الله لا يناله الظالمون، والسماوات والأرض ما خلقا باطلا ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[الدخان: ٣٩]، والإنسان بالغًا ما بلغ فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقه: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. وليعطينا القرآن بعضه لا بد أن نعطيه نفوسنا وعقولنا وقلوبنا كلّها، ولا بد من تحقيق عدة أمور تمهيدية قبل الولوج إلى رحابه:

الأول: تجريد وتنقية معارف وحيه من سائر آثار النسبيَّة البشريَّة التى أحاطت بمطلقه، وحجبت أنواره، وأخضعته لوعيها الذاتىّ، وحكمت عليه بتاريخانيَّتها، وحكَّمت بمحكمه أيديولوجيَّاتها وثقافاتها وأعرافها وتقاليدها، وقاموسها اللُّغوىّ. فإذا لم نجرد «آيات الذكر الحكيم» من ذلك ـ كله ـ وإذا لم نعد قراءته بنور القراءتين المذكورتين فى بداية نزوله وأوائل آياته، قال تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق١ ـ ٥]ـ وفى إطار وحدته البنائيَّة. فإننا لن نتمكن من فهمه معرفيًا، ولن نتمكن من تحليل آياته وتثويرها واستنطاقها، وإذا لم نصل لهذا فلن نستطيع أن نستوعب به مناهج العلوم المعاصرة ونتجاوزها، بحيث نتمكن من إعادة فهمها وتوظيفها فى إطار «الكونيَّة»؛ لأن ذلك ـ وحده هو الذى سيساعدنا على إعادة بناء العقل الإنسانى وصياغته انطلاقًا من: التوحيد والتزكية والعمران صياغة كونيَّة إلهيَّة.

الثانى: الالتزام بالأمانة مع القرآن فكريًا ونفسيًا فلا ندخل إلى عالم القرآن بحثا عن شواهد لأفكار بنيناها بعيداً عنه، ومبادئ وضعناها خارجه؛ لأن المطلوب أن نبدأ حركة التغيير بالقرآن من داخل النفس، فإذا تهيأت النفس وانفعلت به انعكس استعدادها وتهيؤها وانفعالها بالإصلاح على ما حولها، ثم تنداح دوائر الإصلاح - آنذاك - استعداداً وتهيئًا على مستوى جماعىّ، وذلك أقوى بكثير من مشروعات إصلاحات فكر النهضة فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وإن كان فكر النهضة اجتهادا صدر من أهله. كما أنّ ما ندعو إليه أعمق من تحولات الأفكار الثوريّة، وأكثر فاعليّة من سائر التنظيمات التى قامت أو تقام على أساسها.

أما ما درج عليه المعاصرون من الإسلاميِّين من الاهتمام بالحشد العددىّ والتركيز عليه، والاتجاه نحو التجميع الكمِّى دون فكر قرآنىّ، ودون منهج قرآنىّ صارم كذلك، والتصرف بعيدا عن منطلقات التغيير من داخل النفس، فإن ما يفعلون لا يعدو أن يكون مشروعا سياسيّا قد يؤدى فى حالة نجاحه إلى تسلّط فئة أو وصولها إلى سلطة فى قطر مّا كليّا أو جزئيّا، لكن ذلك لن يؤدى إلى تغيير بالقرآن لما فى النفس والمجتمع وجهاد به. والله لا يعطى عهده للظالمين، ولا للذين يريدون علواً فى الأرض وفسادا، أو أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق، إذ إن مآل هؤلاء الخضوع إلى سنَّة «الصرف عن آيات الله» ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ

الَّذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وأعمال هؤلاء الغافلين عن آيات الله لا قيمة لها ولا أثر فى بناء العمران، أو صناعة التاريخ إلا الآثار السلبية، فهى أعمال حكم عليها بعدم الفاعليَّة التامَّة، وبفقدانها لأىِّ آثار عمرانيَّة إذ هى كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، كما أنَّها أعمال محكوم عليها بالحبوط.

الثالث: الدخول إليه بعد فهم «الأزمة» وإدراك أبعادها - كلّها - والإلمام بتعقيداتها، والإيمان بقدرة القرآن المجيد على إيجاد حل مناسب لها، وأن لا مصدر غير القرآن يستطيع أن يقدم العلاج الشافى فيها. ولذلك فلابد من الاطِّراح على أعتاب القرآن اطِّراح المفتقر، المدرك لتجرُّده من كل طول وحول للخروج من أزمته إلا بالله - تعالى - وكلماته.

الرابع: إدراك «الخصائص الذاتيَّة» للأمَّة القطب أو للأمَّة المنطلق التى يراد لها أن تكون ميدان الإصلاح والتغيير الأول، وقاعدة الانطلاق باتجاه «العالم والعالميَّة» وفى الحالة التى نحن فيها فإن «المنطلق» هو الأمَّة المسلمة - والعرب فى موقع القلب منها - ما دامت لم تخضع بعد لسنَّة «الاستبدال» بإيجاد أمَّة مسلمة بديلة عنها. وخصائص المسلم الذاتيَّة - التى غرسها الإسلام فيه - هى الخصائص التى لابد أن تظهر فى محيط الأمة، وتتحول إلى ثقافات وأعراف سائدة وجزء أساسى من الهُويَّة.

إنَّ خطاب الإصلاح والتغيير الذى جرى تكوين المسلم بمقتضاه خطاب قرآنيٌّ، فهو يتّجه بشكل مباشر هادف إلى الإنسان فى كينونته الكاملة عقّلا ونفسًا ووجدانًا وعاطفةً. فهو خطاب لا بد أن يبدأ بالإنسان ذاته ونفسه فى إطار الأمَّة من غير انحراف نحو عرق أو طبقة أو لاهوت أو ما إليها، فإنَّها ـ كلّها ـ تتنافى مع مكونات هذا الإنسان وخصائصه، ولا يمكن لأى نوع من أنواع الخطاب الأخرى التى تمت صياغاتها قديمًا أو حديثًا فى أمريكا وأوروبا وروسيا والصين وسواها أن تشكِّل منظومة دوافع الفاعليَّة لدى هذا الإنسان المسلم من جديد، لعجزها عن ملامسة خصائصه الذاتيّة وذلك قدره.

إن نجـــاح تلك الخطابات المغـــايرة فى تشكيل الدوافع لدى الأمم الأخرى، وإحداث التغيير فيها لا يقوم دليلا ضد ما ذكرنا، بل قد يعزز ما ذهبنا إليه. فلكل أمَّة خصائصها، ومفاتيح التغيير القادرة على ملامسة هذه الخصائص. وخاصَّة الأمم التى تم اصطفاؤها إلهيًّا لتكون نموذجًا للبشريّة فى حمل الرسالة، والقيام بالأمانة، والشهادة على الأمم الأخرى.

خطابات التغيير الأخرى

ولقد شكل خطاب التغيير الطبقىّ مجموعة الدوافع التى انتهت بالثورة الفرنسية عام (١٧٩٨)م. وتحت تأثير ذلك الخطاب الطبقىّ ـ

والثورات الطبقيَّة التى نجمت عنه ـ تحققت الثورة البولشفية فى روسيا عام (١٩١٧)م. وبتأثير الخطاب العرقىّ قامت النازية عام (١٩٣٣)م فى ألمانيا. وبالخطاب اللّاهوتى تأسست البابويَّة. وبخطاب المزج بين اللاّهوتى والعنصرىّ العرقىّ تأسَّست دولة إسرائيل. لكن هذه الخطابات بسائر صيغها وبكل التعديلات التى أدخلت عليها لم تصنع ما استعير منها فى الواقع الإسلامى وفى الواقع العربى منه بالذات ولن تصنع إلا مزيدًا من التفكُّك والتشرذم والسلبيَّة والتراجع، والمراكمة على رصيد التجارب الفاشلة.

وعلى ذلك، فإنَّنا بحاجة لأن نوقن بهذه الحقيقة، وأن نجعل منها أمرًا بديهيّا شائعًا فى أوساط الأمة، وألا نمل التأكيد عليها حتى تستقر فى العقول والقلوب والنفوس، وتنطلق بها الألسنة والأقلام لتصبح تيارًا أو روحًا يسرى فى الأمّة ـ كلّها ـ لتحدث حالة الاستعداد للنهوض، والتهيؤ لقبول «الحل القرآنىّ».

الأمّة القطب بمجموعها وبخصائصها

إن «خطاب الإصلاح القرآنىّ» خطاب تشكل الأمَّة الشاهدة معالم تطبيقه وتنفيذه وتحقيقه وتثبيته فى الواقع ـ بعد خاتم النبيين الشاهد والشهيد ـ الأمَّة الشاهدة القطب التى «لا تجتمع على ضلالة» و«لا تجتمع على خطإ» فهى ليست حزبا ولا جماعة ولا حركة ولا طائفة ولا جمعيّة

ولا فرقة ناجية، ولا هيئة وصاية، ولا هيئة أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ولا مرجعيَّة، ولا قاعدة، ولا هيئة كبار علماء مهما كبروا، ولا مجموعة المجالس والمجامع، ولا الطائفة المنصورة، ولا منظمة المؤتمر الإسلامى، ولا جامعة الدول العربية، بل هى الأمَّة ـ كلّها ـ بحسبانها أمة وبوصفها أمّة دون افتئات أو مصادرة عليها، أو حديث عنها بالنيابة والوكالة. إنّها الأمة القطب بخصائصها الذاتيَّة ومقوّماتها الفكريّة، وشخصيَّتها المتميزة. وأرجو ألا يذهب وَهْم أحد إلى أننى أدعو إلى إلغاء سائر التجمُّعات وتسريح سائر الدعاة، وإنهاء خدمات سائر المؤسّسات، (حتى ينتشر الوعى لدى الأمة ـ كلها ـ بفضل قراءة القرآن المجيد لتقوم قومة رجل واحد فتحدث النهضة، ويتحقق التغيير) لكنَّنى قصدت أنَّه لا بد لخطاب الإصلاح والتغيير لهذه الأمة أن يلاحظ خصائص التكوين عندما يصوغ خطاب التجديد والتغيير.

فما أهم خصائص التكوين؟

إنّ القرآن المجيد قد أخذ بأيدينا إلى أهم خصائص التكوين وتتلخّص بـ«وحدة المرجعيَّة» (إيجاد الأمة الواحدة المتآلفة القلوب) و«الالتزام الجماعىّ المؤكد الصارم» بهذين الأمرين «وإيجاد آليّة لاستمرار ذلك»، وهى: «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» بشروطهما ومواصفاتهما ومستوياتهما. قال تبارك وتعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ**

إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥]. فالأمر بالاعتصام بحبل الله جميعًا، ونبذ التفرق والاختلاف جميعًا خطاب شامل للأمة ـ كلِّها ـ لا يستثنى فردًا منها بحال، وفى ذلك تحديد للمرجعيَّة الواحدة من ناحية، وبناء لضمير الالتزام الجمعىّ الشامل ـ من ناحية أخرى ـ بجميع قضايا الأمة وفى ضمائر أبنائها كافَّة، وتأكيد على ضرورة الإرادة الجماعيَّة الشاملة فى قلوب أبنائها جميعًا لتكون أمة، ولتبقى أو تستمر أمة قائمة، وهذه الأمور الثلاثة: (تحديد المرجعية بالقرآن، والتأكيد الدائم على ضرورة الالتزام بها، وبناء ضمير الالتزام الجمعىّ فى ضمائر أبنائها كافة، وإيجاد وترسيخ الإرادة الجماعيَّة الشاملة فى قلوب أبناء الأمة كافة وصيانة ذلك ـ كلّه ـ بآلية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) تؤدى ـ كلها ـ إلى تحديد الرابطة بين أبناء الأمَّة ـ كلّها ـ ألا وهى الأخوة، وبيان الوسيلة التى أدت إلى ذلك وهى «التأليف بين القلوب» والتأكيد على أن أىَّ ضعف أو انحراف أو إخلال بمفهوم الأخوة وهيمنته على العلاقة بين المسلمين، أو تجاوز وسيلته الأساس ودعامته الكبرى ألا وهى «التأليف بين القلوب» يعنى إنهاء الروابط داخل الأمّة، والدخول فى حالة العداوة وبلوغ شفا حفرة من النار ثم السقوط فيها والعياذ بالله.

فما الذى يستلزمه ذلك؟

إن ذلك يستلزم أن تتمخض الأركان التى ذكرنا «وحدة المرجعيَّة» وتأكيد «الالتزام الجمعىّ» بقضايا الأمَّة، وتشكيل الضمير المتابع لذلك، و«تحقيق الإرادة الجمعيَّة» وتحقيق «التأليف بين القلوب» للوصول إلى حالة «الأخوة» تتمخض من أن تنبثق أمَّة من الأمَّة، بحيث تكون بعد ذلك الأمَّة كلها، وتضع فى مقدِّمة أولويَّاتها بعد أن تتحقق هذه الأركان فيها، أن تبلغ بالأمَّة ـ كلِّها ـ حالة تجعلها قادرة على ممارسة دورها فى الخلافة والشهود والعمران آنذاك.

فهذه الأمَّة تتحرك بالإرادة الجمعيَّة للأمَّة، لأنها منها، فتبقى الأمة هى الكيان الأساس، لا الحزب ولا التنظيم ولا الجماعة ولا الطائفة، ولا المذهب ولا الإقليم. ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. فهذه الأمَّة الخيِّرة، المتحلية بكل هذه الصفات جزء من الأمّة، ملتصق بها، تكوِّنه الأمّة طليعة لها، للتفاعل معها، ومن التزامها بخصائص الأمّة. تستمد شرعيَّتها ووجودها، فهى مثل أعضاء الجسم الواحد أو كريَّات الدم تؤدى أدوراها فى التحام تام بالجسم، ودون انفصال عنه: فالجسم ـ كلّه ـ هو الذى يحمل لها الحياة، ويمدها بالحيويَّة، وهى تؤدى أدوارها فيه، ومن خلال ما ينتجه ذلك الجسم لها، فهما شىء واحد لا انفصام لهما.

وهذه الأمَّة التى تتكون منَّا بإرادتنا الجمعيّة، وباختيارنا الحر تتجسد أحيانًا فى شكل نظام، وأحيانًا فى شكل تنظيم وأيّا كان الأمر فليس من حق النظام، أو التنظيم أن يتكون خارج الأمة، أو ينفصل عنها قبل التكوين أو بعده، أو يتجاهل أيّا من الأركان التى جاءت بها آية «الاعتصام بحبل الله»؛ فإن هو فعل فسيخلق حالة عداء ويؤدى إلى التفرق والاختلاف، وكل ما يخلق أيّا من هاتين الحالتين مرفوض ومردود، ولن يؤدى إلى تحقيق الهدف.

الأمة بين جور النظم وافتيات التنظيمات

من المؤسف أن نرى أمتنا بعد أن طال عليها الأمد، وغابت عنها هذه القواعد تعيش بين حالتى استلاب قد أوكلتها إلى نظام يستلبها ويستعبدها ويستبد بها، أو إلى تنظيم يفتات عليها، ويمزّقها ويفرض نفسه عليها ناطقا باسمها أحيانًا أو ممثلا لها أحيانًا، دون أى تشاور أو رجوع إليها؛ فكأنها تتذبذب بين جور النظام واستبداده، وبين تفرقة التنظيم وتصنيفه وتمزيقه لها، واستعلائه عليها، فتستجير بأحدهما من الآخر ولسان حالها يقول:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا خروج من هذه الدوامة إلاّ بأن يكون كل من النظام والتنظيم متلاحمًا مع الأمّة، ملتصقًا بها، وليكتسب كل منهما الفاعليّة والشرعيّة

يجب ويتحتم أن يكون أمَّة في داخل الأمّة، وأمّة من ذات الأمَّة، لا يوجد أيٌّ منهما خارجها، ولا يتخلق بمعزل عنها، ولا يتجاوز تاريخها ومكوّناته، ولا يتجاهل «جدليّة» ذلك التاريخ وهو يتحرك لتغيير ما فيها وإصلاح أحوالها، بأن ينصرف إلى تكريس النظام وحمايته فيتحول إلى مستلب للأمَّة بالنظام، أو يتجه إلى الحزب أو إلى التنظيم فيتحول إلى مفرّق لها، فارض نفسه عليها، فيثير العداء في صفوفها، والاختلاف والتفرق بين أبنائها. ويوجد حالات الصراع الداخلي بين فصائلها.

منكم لا عليكم

إن الأنظمة المستبدة - في مختلف أقطار أمتنا المسلمة وأقاليمها لم تأخذ بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ﴾ [آل عمران] فتحولت إلى «عليكم» فصارت متسلّطة علينا، مستبدة في شئوننا مفتاتة علينا، مستلبة لإرادتنا تستمد شرعيّة وجودها من خارجنا، تسوغ ذلك لنفسها بشتى المسوغات، ومنها: قصور الأمّة، أو عجزها عن إدراك مصالحها!! وما من أمة مجتمعة إلا وهي أعقل وأحكم من أهل الاستبداد فيها مهما بلغت درجات تعلّمهم أو ذكائهم أو تدريبهم. فالزعيم المستبد يمكن أن يضل ويشقى ويخطئ ويجهل، أما الأمَّة إذا اجتمعت كلمتها، وتمتَّع أبناؤها بحقوقهم، واستردوا إنسانيّتهم ومارسوا حريّاتهم فمهما أخطأت فلن تجتمع على الخطإ، ومهما انحرفت فلن تجتمع على ضلالة.

لكن قيادات النظم المتجاهلة للمراد بـ «منكم» والمتسلطة «عليكم» وكذلك التنظيمات ترى فى الأمة أسوأ ما فيها فتستعلى عليها، وتستكبر، ثم تستلب إرادتها، وتستمرئ الطغيان عليها فتصبح الأمة - آنذاك - غثاء كغثاء السيل تلعن حاكميها ويلعنونها ولا يأتى أىٌّ منهما بخير أينما توجّه. ويستعين كل منهما على الآخر، ويستقوى عليه بالآخرين.

الاستبداد لا يأتى بخير

إن «العبودية» رتبة شرف حين تختص بالله - تعالى - أمّا حين تصرف إلى غيره فهى مذلة وهوان وصغار فهى - آنذاك - أحط درك ينحدر الإنسان فيه.

ولقد هفا «حكيم الشرق» جمال الدين الأفغانى - رحمه الله - «وهفوات الكبار على أقدارهم»، وذلك حين قال: «إن هذه الأمة «المسلمة» لا تصلح إلا بمستبد عادل» ولو تأمل رحمه الله قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] لأدرك أن «العدل» و «الاستبداد» نقيضان لا يجتمعان فى رجل أو نظام، أو تنظيم؛ فإمَّا عدل وشورى فينتفى الاستبداد، وإما استبداد واستعلاء، فتنتفى الشورى، ويختفى العدل. وتظهر عبودية الإنسان للإنسان. والأمَّة التى تطاوع على ذلك أمَّة ناكثة لعهدها، متراجعة عن قولها «بلى شهدنا»

ناقضة لعروة من أهم عرى «التوحيد» ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. ومستقيلة من مهمة الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهى خائنة للأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وراسبة فى اختبار الابتلاء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]. ومتخلية عن عبادة الله إلى عبادة العباد ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٣ ـ ٧٦].

فكل هذه الانحرافات ثمرة لأزمة تصيب الأمَّة حين تتقبل حالة الاستلاب الطاغوتىّ، سواء أكان من نظام أو تنظيم فهى بكماء خرساء أينما توجَّه لا تأتى بخير، كَل على أولئك الذين استلبوها، غثاءٌ كغثاء السيل.

لقد توهم فرعون أنّه إله حين طغى واستمرأ الطغيان، وطاوعته جماهير شعبه المخدوعة، المستذلّة المخلدة إلى الأرض، فلبَّوا نداءه، فحشرهم، وإذ رأى كل تلك الجماهير الأصفار الصغار حوله انتشى، وأسكره خضوعها «... فانطلقت منه الكلمة الوقحة المتطاولة، المليئة بالغرور والجهاله: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤] قالها الطاغية مخدوعًا بغفلة جماهيره وإذعانها، وانقيادها. فما يخدع الطغاة شىء مثل ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلاّ فرد لا يملك فى الحقيقة قوة ولا سلطانًا إنّما هى الجماهير الغافلة الذلول، تمطى له ظهرها فيركب! وتمد له أعناقها! فيجر! وتحنى له رؤوسها فيستعلى! وتتنازل له عن حقها فى العزة والكرامة فيطغى.

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة، وخائفة من جهة أخرى؛ وهذا الخوف لا ينبعث إلاّ من الوهم، فالطاغية ـ وهو فرد ـ لا يمكن أن يكون أقوى من الملايين والألوف لو أنّها شعرت بإنسانيّتها وكرامتها وعزتها وحريَّتها. وكل فرد فيها هو كفء للطاغية من ناحية القوة، ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنّه يملك لها شيئًا! وهو لا يملك لنفسه شيئًا.

وما يمكن أن يطغى فرد فى أمَّة كريمة أبدًا. وما يمكن أن يطغى فرد فى أمّة رشيدة أبدًا، وما يمكن أن يطغى فرد فى أمّة تعرف ربَّها، وتؤمن به، وتوحده، وتأبى أن تتعبّد لواحد من خلقه لا يملك لها ضرًا ولا رشدًا. (٢٤)».

روى لنا وزير أوقاف أحد المستبدين أن سيده سأله مرة إن كان ممن تجب عليهم الزكاة؟ وبعد سلسلة من الألقاب قال له وزيره: نعم: تجب الزكاة على من يملكون النصاب، وسيادتكم منهم. فأجاب السيد الرئيس ـ: ألا ترى أننى أطعم الشعب كله، وأوفر له الدواء والكساء والتعليم والنقل؟ ألا يعد هذا أكثر من الزكاة بالنسبة لى؟ فبهت الوزير ودعا للسيد الرئيس وانصرف. وهذا الرئيس كان قبل الرئاسة معدمًا عالة، ومن أسرة معدمة جعل رزقه مربوطًا بمسدسه يبتز به الضعفاء ويسلبهم أموالهم، إلى أن بدأ التدرج فى سلالم الحزب والسلطة فاستلب الحزب واغتصب السلطة فأصبح مال الشعب كله ماله الشخصى، وكأنّه رأى فى شعبه أولئك الضعفاء الذين كان يسلب ما معهم من نقود، ويضربهم وينصرف بما معهم على أنَّه ماله وحلاله مادام آل إليه ولو بالاغتصاب!!

أفيستغرب ـ بعد ذلك ـ أن ينهار هذا الشعب المستلب أمام أعدائه ولسان حاله يقول ما قاله الشاعر الجاهلىّ:

(٢٤) فى ظلال القرآن: (٦/ ٣٨١٥) تفسير سورة النازعات.

لا أذود الطير عن شجرٍ . . . قد بلوت المر من ثمره

وحين تفقد الأمة ثقتها بالنظام، وتنهار الجسور بينها وبينه، يبرز فيها الاستعداد لقبول البدائل إن وجدت. وهنا يأتى التنظيم، ويطرح نفسه بديًلا بين يدى الشعب، ويطرح من الشعارات ما يخلب الألباب، ويسوق انتقادات كثيرة للنظام، ويؤكد بأنَّه «منكم وإليكم»، فإذا ما منحت الأمة التنظيم شيئًا من ثقتها سرعان ما تبرز روح «عليكم» للتعبير عن التسلُّط والوصاية والامتياز وروح الاستعلاء، وكأن صفات النظام تتلبس بالتنظيم، بل تنمو فيه. وهنا ينبّه القرآن الكريم إلى هذه الحالة فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٨].

ولتدخل الأمة فى حالة السلم لابد لها من تجاوز ـ أى أن تتجاوز كل ما يثير عداءً بين أبنائها سابقًا أو لاحقًا، وكل ما يثير اختلافًا بين فصائلها. فالتنظيم الذى لا تتجسد فيه روح «منكم» بكل المعانى التى ذكرناها فإنه سيكون مصدر اختلاف، ومصدر تفرُّق، يسوغ لنفسه الاستعلاء والافتئات على الأمة، وقد يلوى أعناق النصوص، وينحرف

بالخطاب ليدعم سياساته المنبثقة من روح «عليكم» وتصبح الأمة أو الشعوب بين مطرقة استلاب النظم وسندان استلاب التنظيم.

ظاهرة الصراع العربىّ الصهيونى ودلالاتها

إن العالم اليوم يلاحظ ظاهرة الصراع العربىّ - الإسرائيلىّ وما يجرى فى فلسطين من قتل وتشريد وتدمير، ويتخبط الناس فى تفسير هذه الظاهرة خبط عشواء، ويعطونها من التفسيرات ما يشاءون، ولها عندنا من هدى القرآن ما يمكن أن يفسرها أو على الأقل يفتح لتفسيرها طريقا يبسا، يتلخص فى أن الله - تبارك تعالى - قد حمّل بنى إسرائيل التوراة فأبوا أن يحملوها، فقال فيهم تبارك وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥]. وهؤلاء - اليوم - يواجهون أمّة أخرى حُمِّلت القرآن فلم تحمله كذلك، وفى الآية الثانية من سورة المنافقون يقول تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٢ - ٣].

فهذه الأمّة المسلمة المسكينة بلغت ذات المستوى الذى بلغه شعب بنى إسرائيل حيث حمِّلت الأمّة المسلمة القرآن فلم تحمله إلا بتلك «الطريقة الحماريَّة»، نقرؤه على موتانا، وتتسلى به إذاعاتنا، ويتبرك به كسالانا،

وتضعه فتياتنا على صدورهن العارية، فما النتيجة؟ بنو إسرائيل ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢]. وبذات الطريقة حملنا القرآن الكريم - على الظهور، لا في القلوب والعقول - فضربت علينا الذلة، وأمددنا أعداءنا بحبل انحراف منّا، حين نزع الله منا أمانة الاستخلاف، وجعلنا في مواجهة قدرية معهم، لا في فلسطين - وحدها - بل في العالم كلّه. وكل من الشعبين في حالة مماثلة للآخر من حيث موقف كل منهما من الرسالة الإلهيَّة التي حُمِّلها، والأمانة الربانيَّة التي اؤتمن عليها. إنّ وعد الله حق، وقد وعد - جل شأنه - أن تكون العاقبة للمتقين، ووعد أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون، وذلك كائن لا محالة، فمن صلح وتحقق بالتقوى، وارتدى لباسها وتحلّى بالصلاح، وحققه في نفسه وفيما ينتمي إليه استحق ذلك ولا شك. ولا يكون ذلك إلاّ للذين يحملون القرآن حمل البشر المستخلفين، لا حمل الحُمُر المستذلّين. فكلا الشعبين «العربي والإسرائيلي» تم استخلافه في هذه المنطقة من قبل في مرحلتين مختلفتين، وكلٌّ منهما تلقى من الله - تبارك وتعالى - كتابًا وحُمِّل رسالة وأمانة، وأمر باتّباع ما في الكتاب وعبادة الله - تبارك وتعالى - وكل منهما قد تصرف في تاريخ هذه المنطقة وأثّر فيها، فبنو إسرائيل تفرقوا لمدة (١٤) قرنا من حين دخلوا أريحا في القرن (١٤) قبل الميلاد،

وأمتنا قد بدأت هيمنتها على المنطقة مع الإسلام قبل (١٤) قرنا كذلك.

ثم بدأت الهجمة الصهيونيَّة الحديثة، ووجدنا أنفسنا ـ الآن ـ وجهاً لوجه متصارعين في ذات المنطقة، وفي إطار مثلّث التجوال الإبراهيميّ الجغرافيّ التاريخيّ ـ الذي صار بذلك الصراع منطقة ملتهبة ـ هم معهم المدد الأمريكيّ الغربيّ، وأهم منه مدد انحرافاتنا وأخطائنا، ونحن معنا مدد البترول والمعادن والثروات الكامنة في أراضينا ومواقعنا الاستراتيجيَّة التي قمنا عليها وأقمناعلى ثرواتنا السفهاء الذين نهانا القرآن أن نؤتيهم أموالنا، أو نمكّنهم منها؛ وتشير آيات الكتاب الكريم إلى هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿. . . وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا. . .﴾ التي جاءت في سياق الآيات المبينّة لقدر بني إسرائيل، والمنبِّهة إلى جبريّة حكمت حلقات التاريخ الإسرائيليّ ـ كلّها ـ قامت على عهد بينهم وبين الله أخلوا به، وحاكميَّة إلهية تمردوا عليها، مرات ومرات. وعلى ميثاق أخذ عليهم أن يبيّنوا ولا يكتموا ويسمعوا ويطيعوا. فلم يفعلوا، وعلى شريعة خاصّة بهم ما رعوها حق رعايتها ومجموعة من المعجزات الحسيّة، الكافية التي طلبوها ومُنحوها، ثم تجاهلوها، واستمروا في غيِّهم وإفسادهم في الأرض. قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ

أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ [الإسراء ٤ ـ ٨].

فماذا عن أهل القرآن؟

إنّهم حمِّلوا القرآن، ثم لم يحملوه إلا لفترة قصيرة هى الفترة التى صاروا فيها «أمَّة» لاعتصامهم بالقرآن. بل جعلهم الذكر الحكيم خير أمَّة أخرجت للناس، ومنحهم الوسطيَّة، وضم إلى كنف الإسلام الشعوب الأميَّة التى أبى بنو إسرائيل الاهتمام بها ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) ومكنهم من هزيمة القوّتين العظميين فى العالم القديم: (الفرس والروم) وما كانوا ليهزموا أيّا منهما لو ركنوا إلى أنفسهم وطاقاتهم، ولكنّه أثر فعل الله فى الواقع. وعونه لهم، ونصره لهم على عدوهم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾

[آل عمران: ١٢٦، الأنفال: ١٠].

ثم بنوا حضارة كانت غُرَّة فى جبين الحضارات الإنسانيَّة. ولما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم، وظنّوا أن ما حقّقوا إنّما حققوه «. . . على علم عندهم. . .»، ولم يعودوا يلاحظون أثر فعل الله فى كل ما تحقق، وما سيحدث: بدءوا مسيرة التراجع والتقهقر، ولم يرجعوا، ولم يلتفتوا

إلى سنن القرآن، وقوانين الحركة فى التاريخ والمجتمع. وبدءوا يعطون لكل ما يحدث لهم وحولهم من ظواهر مختلف التفسيرات إلاّ «التفسير القرآنيّ» لقيام الأمم، وسقوطها، وبناء الحضارات وانهدامها، ورقيّ الشعوب وهبوطها. وتبادل الأيام ومداولتها.

وهكذا انفكت عرى وحدة الأمة، وانتقضت عرى المسلمين عروة عروة فلم تعد علاقتهم بالقرآن إلاّ علاقة شكليَّة هى أشبه ما تكون بعلاقة جغرافيَّة أو قوميَّة.

وهكذا واتت الجرأة أعداء الإسلام على أن يتصدّوا للقرآن ذاته، وقد كانوا من قبل يتحاشون أن يفعلوا ذلك صراحة لئلاّ تشعر قطع الأمَّة الممزَّقة بجديَّة الخطر، وضخامته فتنتعش فيها دوافع الحياة، وتبدأ بمحاولات التأليف بينها، والالتئام والتلاصق والتلاحم من جديد.

لقد تجرءوا على القرآن، لأنّهم أدركوا أنّ الهوّة بين «حقيقة القرآن» وبين المسلمين قد أصبحت سحيقة؛ نعم إنّهم يحسنون زخرفته، وطباعته وتجليده، وقراءته على موتاهم، والتغنّى به فى إذاعاتهم وفضائيّاتهم، وتحفيظه للنابهين من أبنائهم. وعقد المسابقات بين القارئين، أو الحافظين لسوره وآياته أحيانًا. لكنّهم لا يحسنون فهمه، ولا التلقى عنه، ولا إدراك معانيه، ولا الإلمام بمقاصده ومراميه، فبينهم وبين ذلك مفاوز وقفار.

بعض أسباب الفصام الحالى بين القرآن وحملته

يمكن إرجاعها لأسباب كثيرة منها:

١ ـ ١ تراجع علاقتهم باللُّغة العربيَّة عامّة فضلًا عن لسان القرآن خاصّة. فمنذ قرون واللُّغة العربيَّة تشهد عمليَّات حصار وتهميش وسخريَّة وإقصاء كاد يجعلها لغة ثانويَّة عند أهلها. وفى عصرنا هذا حين يحلو للبعض أن يذكر «اللّغات الحيَّة» على حد تعبيرهم فإنّهم لا يجدون للعربيَّة موقعًا بينها.

١ ـ ٢ سيادة اللّهجات العاميَّة أو ما أسميّته «باللّهجات العاميَّة المطوّرة» فى أجهزة الإعلام، والتعليم والصحافة، فقل أن تجد من يلتفت إلى قواعد النحو والصرف، والأحكام اللّغويّة فى هذه الأجهزة. يضاف إلى ذلك كثرة استعمال القيادات السياسيَّة، والدينيَّة وكثير من دوائر الدول للغة لاهى بالفصحى، ولا هى بالعاميَّة المحضة، مما أوجد حالة اغتراب ملحوظ للّغة العربيَّة بين أهلها.

١ ـ ٣ إخراج اللّغة العربيَّة من دائرة اللُّغات العلميَّة وعَدُّها غير صالحة لأن تكون لغة علوم.

هذا العامل قد أوجد حاجزا سميكا بين العرب والمسلمين وبين القرآن. (وسنتناول هذا العامل تفصيلا فى الحلقة الخاصة «بعربيَّة القرآن» من هذه السلسلة) ولذلك فإنّه ما لم تسارع الأمَّة إلى إعادة بناء الجسور

بينها وبين لغتها العربيَّة الفصحى، وتيسير سبل تعليمها وتعلّمها فإن الفجوة بين الأمّة وبين القرآن سوف تزداد اتساعًا. مثل ما اتسعت الفجوة بين خط القرآن وإملائه، وبين الخطوط الأخرى بشكل جعل كثيراً من الأساتذة، وحملة الألقاب العلميَّة فضلا عن الأبناء يخطئون فى قراءة القرآن؛ لانعدام الإلف بينهم وبين إملائه وخطه.

٢ ـ ١ تكاسل الناس عن قراءة القرآن المجيد. لقد كان المسلمون فى جيل التلقى لا يشغل أحدهم شيء عن القرآن، فلكل منهم ورد قرآنىّ يقرؤه بفهم ووعى وإدراك، ويعمل بمقتضاه. ولا يستطيع أحدهم أن يمضى يومًا أو ليلة دون قراءة فى القرآن عداما كانوا يقرؤونه فى صلواتهم. ولذلك فإنَّ عقل الإنسان المسلم وقلبه ووجدانه يكون فى حالة استحضار دائم للقرآن المجيد. ويكون القرآن فى حالة حضور دائم فى كل بيت، وبين أبناء الأسرة المسلمة كلّها.

٢ ـ ٢ لم تكن أيَّة شريحة من شرائح المجتمع تنسى نصيبها من القرآن: فالفقيه والقاضى والمفتى والعالم والمتعلم على صلة دائمة بآيات الأحكام فى أقل تقدير وكل منهم يستدعى آيات القرآن كلّها ـ ولا بدَّ ـ ليتمكن من ممارسة مهامه.

وأرباب الحرف والصنائع، والمهتمون بقضايا التربية والتعليم وبناء الأخلاق والرجال والنساء والأساتذة والطلاب والباعة والتجار وسواهم، لكل صنف من أولئك نصيب من القرآن يشدُّهم إليه كلّه.

٢ ـ ٣ لقد كان أول ما يبدأ الأبناء بتعلّمه عند بلوغ سن التمييز القرآن يتعلمون قراءته فى تلك السن المبكرة، ويتعلمون معه أهم أحكام التجويد، ومن رسمه وكتابته يتعلمون الخط فيرتسم ذلك ـ كلّه ـ فى عقولهم وأذهانهم، وينطبع فى قلوبهم. ويتأثر به وجدانهم، وتنفعل به نفوسهم. ولذلك أثر بالغ فى التكوين العقليّ والنفسيّ للناشئة. وقد يحفظونه عن ظهر قلب فتنمو بذلك قدراتهم الذهنيّة، فيكسبون حصيلة لغويّة وفكريّة ومعرفيَّة ليس من السهل الحصول عليها بواسطة أخرى. لقد لاحظ أعداء هذه الأمَّة غياب ذلك ـ كلّه ـ ولاحظوا أن المسلم لم يعد قادراً على الاتصال بالقرآن مباشرة ـ بعد الفجوة اللّغوية الواسعة والقراءات التجزيئية ـ بل لا بد له من الوسائط الكثيرة، وفى مقدّمة تلك الوسائط. كتب التفسير والتأويل ـ قديمها وحديثها: وللمفسّرين مذاهب واتجاهات، وانتماءات كثيراً ما تتأثّر تفاسيرهم بها، فهناك تفاسير عقليّة، وتفاسير إشاريَّة، وتفاسير رجال الطوائف على كثرتها، وتفاسير أهل الرأى وأهل الأثر. وهناك تفاسير شحنت بالاسرائيليّات[٢٥]، والقصص وجل هذه التفاسير شكلّت وما تزال

(٢٥) هناك دراسات كثيرة صدرت حول الإسرائيليات فى التفسير والحديث وغيرهما، منها ما أورده ابن حزم فى مواضع متفرقة من «**الأحكام**» وما نبه إليه ابن تيمية وابن خلدون وغيرهما. ومن المحدثين كتب فى ذلك الشيخ الذهبى وأبو شهبة ومحمد عزت دروزه وأخرون. وراجع بحثنا المنشور فى مقاصد الشريعة حول «**الفقه الإسلامى ماله وما عليه**» نشر دار الهادى فى بيروت.

تشكّل عوائق بين القرآن الميسّر للذكر وبين تدبُّر القارئين وتفكرّهم وتعقّلهم وتذكّرهم؛ بل إنّها فى كثير من الأحيان تجعل الناس مشغولين بها أكثر من انشغالهم بالقرآن ذاته - لأنّها لم تُعدَّ لقيادة القارئين وهدايتهم إلى تلاوة القرآن حق تلاوته وتدبُّره، وتعليمهم طرائق ترتيله وتلاوته حق التلاوة، بل لتبيِّن لهم معانيه - كما يفهمها المفسِّرون والمؤوِّلون - فى إطار النسبية البشريّة ونماذج المفسرين المعرفيّة وطبائعهم فى التلقى والفهم وقدراتهم، وتأثّرهم - بعد ذلك - بسائر المعطيات والمؤثّرات الفكريّة واللّغويّة والثقافيّة، وما إليها مما تزخر به بيئاتهم.

فهى كالترجمات بالنسبة للناطقين بغير العربيَّة لن يتمكن القارئ للقرآن بواسطتها أن ينفذ إلى إعجازه، وسموّ بلاغته وفصاحته، وإدراك عظمة بيانه. ومكنونات آياته والحظوة بأنواره وتأثيره وهدايته. بل يقتصر وعيه على جزء من وعى المترجم الذى عبَّر عنه بترجمته المحاطة بكثير من جوانب القصور والنّسبيَّة. قد يكتسب الإنسان من التفسير والترجمة عائدًا معرفيّا أو عقليّا محدودًا، لكن من الصعب أن يحصل من ذلك على العائد النفسىّ والوجدانىّ، أو على العائد العقلِّى الممتد المتَّسع الذى يصوغ الشخصيّة الإنسانيَّة الإسلاميَّة بكل جوانبها.

٢ - ٤ شيوع الأفكار الدهريَّة والعلمانيَّة التى أكدت وما تزال تؤكد على أن القرآن المجيد «كتاب دينىٌّ» شأنه شأن أى كتاب دينىٍّ آخر تنحصر اهتماماته بالشأن الأخروى، والتعبّدى الذى يغلب أن يصنَّف فى

«اللامعقول» فانفصلت النخبة وأصحاب النفوذ السياسىّ والأكاديمىّ فى الغالب عن القرآن، واتخذته مهجوراً.

وكرست «ازدواجيَّة التعليم»، هذا البعد الخطير الذى هيمن على التعليم فى سائر بلاد المسلمين. وبذلك سادت الغفلة عن «حاكميّة الكتاب، وشريعة التخفيف والرحمة، وختم النبوّة» وسائر خصائص القرآن. ولم يعد الكثيرون يدركون القرآن، واشتماله على الذكر الذى جاء النبيّون ـ كافة ـ به، وكونيَّته وتصديقه على كل ما سبق وهيمنته على ذلك كلّه.

ومن غفل عن مبنى القرآن فلن يتمكن أن يدرك خصائصه ومزاياه.

وإذ اطمأن أعداء الله وأعداء القرآن والمتربصون بهذه الشعوب (التى كان القرآن قد جعل منها خير أمَّة) إلى أن القوم قد اتخذوا هذا القرآن مهجوراً: جاؤوا «بفركانهم المفبرك الباطل» وهم يتوقعون أن هذه الأمّة التى لم تعد تحمل القرآن إلا «بالطريقة الحماريَّة» سوف يجوز عليها باطلهم، المعزَّز بالزخرف وبالعلم، والمؤيَّد بالقوى الصناعيَّة المتحكِّمة فى مصائر العالمين، القادرة على تهيئة الأجواء له، وربما فرضه على بعض الشعوب. وبهذا يحقّقون مجموعة كبيرة من الأهداف.

أولها: تحصين شعوبهم وشعوب النصرانيّة وشعوب العالم ضد الإسلام وتزويدهم بأجهزة مناعة واقية ضده، وضد انتشاره فى ديارهم.

ثانيها: كسب وتنصير أو تكفير جهلة المسلمين ـ الذين لم يعد لديهم من الإسلام أكثر من انتماء جغرافىّ أو قومىّ أو تاريخىّ. وهم الغالبيَّة الساحقة من المسلمين اليوم.

ثالثها: فتح قلوب وعقول الشعوب الأخرى والمسلمة أيضًا إلى أنّه لا بديل بين يدى البشريَّة إلاّ «النصرانيّة» والمنظومات السائدة فى ديار أهلها، فهى ديانة القوى العظمى، ولها باع طويل فى صناعة حضارتها وتقدمها، وهى ديانة صنَّاع الديمقراطية ودعاة الحريّة وحقوق الإنسان....

أما القرآن فإنّهم قد حكموا عليه بأنّه أهم منابع الإرهاب والتطرّف والتعصُّب، والصراع، واضطهاد الأقليَّات. وإيجاد الدكتاتوريّين، وصناعة الطغاة.

فيجب تضافر البشريَّة كلها على محاصرته، وإزالته من الوجود وإحلال «المفبركان الباطل» محله!

وماذا بعد؟

إنّ الدفاع عن النفس حق مشروع لا ينازع فيه أحد من الناس. والقرآن المجيد هو روح الإنسان المسلم ونفسه وعقله وقلبه ووجدانه، والمساس به إعدام لذلك ـ كلّه ـ ومن هنا فإنّ الدفاع عن القرآن دفاع عن النفس وعن الهُويَّة العربيّة والإسلاميَّة. أمّا بالنسبة للعرب بخاصة فإن

مسئوليتهم أكبر، فإن القرآن إذا كان للعربى المسلم مصدر دين وهداية، وموصِّلا إلى الحقيقة، فإنّه بالنسبة للعربى النصرانىّ مصدر ثقافته ولغته ووعيه بذاته القوميَّة. وعلى هذا فإن العرب كافة مطالبون بإدراك مسئوليَّة كل منهم عن القيام بشرف الدفاع عن القرآن المحفوظ إلهيّا، الغنىّ عن دفاع المخلوقين، لكنّها «سنَّة التدافع الماضية» التى تحتِّم على حملة القرآن أن يدافعوا خصومه، ويحولوا بينهم وبين الوصول إلى حريمه وحماه. فبئس حملة القرآن من لا يعرفون للقرآن قدره وقيمته، وبئس حملة القرآن من لا يحسنون المدافعة عنه، والحيلولة بين خصومه وبين النيل منه.

ومعركة القرآن تختلف عن سائر المعارك الأخرى فى طبيعتها، وفى أسلحتها، وجندها وقادتها ووسائل تحقيق النصر فيها.

كما تختلف صفحات «المدافعة» فيها عن صفحات سائر أنواع المعارك. وتختلف إستراتيچيتها عن سائر أنواع الإستراتيچيّات الأخرى. وإن كانت تشارك بعض أنواعها فى إجراءاتها من سَوْقٍ وتعبئة وتحصين وكر وفر ودفاع وهجوم، وما إلى ذلك.

إنّ معركة القرآن ـ فى حقيقتها ـ معركة الإنسانيَّة ضد خصومها وأعدائها. ومعركة الدين ضد الإلحاد والشرك والكفر والنفاق. ومعركة القيم ضد التحلُّل، ومعركة الأخلاق ضد الفجور، ومعركة الخير ضد الشر، ومعركة الحق ضد الباطل. والصدق ضد الكذب والزور

والافتراء، إنّها معركة الإرهاب والإرجاف الحقيقيَّين ضد الأمن والطمأنينة والإيمان والسلام والإسلام، إنّها معركة سائر الأديان التى صدَّق القرآن عليها وهيمن ضد الجاهليَّة والتجديف والإلحاد والزندقة. ومن خصائص هذه المعركة أنّ مواقع أطرافها واضحة وأن نتائجها محسومة مسبقاً فالنصر حليف الطرف الذى يقف إلى جانب القرآن المجيد - الذى لم يستطع أحد هزيمته عبر التاريخ، والمنهزم عدو القرآن الكريم مهما كان حتى لو تحالفت معه الجن والإنس بكل ما لديهم من أسلحة ووسائل فمنزِّل القرآن لم ينزّله ليهزم، ولن يتخلى عن حفظه.

أماّ معركة المدافعة بين حملة القرآن وأعداء القرآن فتحتاج إلى ما يلى:

أولاً: رد الاعتبار إلى اللُّغة العربيَّة وإعطائها كل ما تستحقه من اهتمام، وتيسير سبل تعلّمها وتعليمها بكل ما هو ممكن من الوسائل المتاحة وما أكثرها.

ثانيًا: حسبان إتقانها شرطًا لا تساهل فيه فى تولى المسئوليَّات العامَّة، والوظائف المختلفة.

ثالثًا: العناية بترجمة مصادر ومراجع العلوم المختلفة من سائر اللّغات إلى العربيّة وتعريب المصطلحات العلميَّة، واختيار أفضل المصطلحات والمفاهيم المعبّرة عن المعانى والأفكار العلميَّة بأدق الصيغ، وأكثرها ملاءمة.

رابعًا: تعريب التعليم الجامعى بكل أنواعه من طب وصيدلة وعلوم وهندسة، وتعريب أسماء الأدوية، وغيرها.

خامسًا: استخدام «الحاسوب» وتقنياته استخدامًا يخدم العربيَّة، وجعل اللّغة العربية موازية للغات الأوربيَّة والأمريكيّة فى تعاملها مع «الحاسوب» وأى أجهزة متطورة أخرى.

سادسًا: تبنِّى «منظمة المؤتمر الإسلامى» بكل مؤسّساتها الدعوة إلى نشر اللّغة العربيَّة فى العالم الإسلامى، وتيسير ذلك بكل ما هو ممكن ومتاح من وسائل. وتجنّب تكرار الخطيئة التى وقعت فيها الجامعة العربية سنة (١٩٥٤) حين عجزت أو تكاسلت عن تقديم المساعدات اليسيرة التى طلبتها پاكستان لجعل العربيَّة لغة رسميّة لها، وتعريب البلاد.

سابعًا: على الدول العربيَّة البترولية أن تخصص جزءًا من إيرادات النفط لوضع تلك العائدات فى بناء مؤسّسات تحت مظلة «منظمة المؤتمر الإسلامى» و«الجامعة العربيَّة» و«الأزهر»، و«المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية» ومجامع اللغة العربيّة وغيرها لوضع إستراتيجيَّة شاملة لتحقيق ما ذكرنا.

بناء الوعى بالقرآن

وأمَّا بناء الوعى بالقرآن لدى «الأمَّة القطب» ومن بعدها البشريَّة - كلّها - فيعتمد على أمور كثيرة، منها:

أولاً: أن ندرك بأنّ القرآن حين يخوض معركة ضد أى نوع من أنواع خصومه فإنّه لا ينطلق من موقع ضعف أو دفاع، بل من منطلق التحدىّ والإعجاز ليسقط أسلحة خصومه - كلّها - مرّة واحدة. فهو كتاب يقرأ باسم الله وبمعيَّته يأخذه من يأخذه بقوَّة التحدى والإيمان بأنّه أمضى الأسلحة وأقواها، ولذلك فإنّ على من يحارب معركته أن يجاهد الناس به جهاداً كبيراً. فلاسلاح أمضى منه فى معركة دفاعه عن نفسه.

ثانيًا: ولكى ننطلق بالقرآن من منطلق التحدى والإعجاز، ونجاهد الناس به جهاداً كبيراً، على علمائنا ومفكرينا وحملة القرآن فينا أن يكتشفوا «الرؤية الكونيّة» للقرآن الكريم، ويتبنّوا أبعادها ويتسلّحوا بها وبفهمها وفقهها. و«الرؤية الكونيّة القرآنيَّة» رؤية لا يصل إليها من لا يدرك «إطلاقيَّة القرآن» وأنّه لا صلة بينه وبين النسبيّة والاحتماليَّة بحال، وما ينبغى أن يسقط عليه شىء منهما.

والقرآن بإطلاقيّته قد استوعب الكون المطلق وحركته بشكل موضوعىّ فما ترك جانبًا من جوانب الخلق الإلهىّ لم يتناوله، ولم يعطه التفسير المناسب من عالم العهد حتى عالم الجنَّة والنار. كما استوعب «الإنسان المطلق» من حيث إنسانيَّته؛ فإطلاق الإنسان منصرف إلى «الحقيقة الإنسانيَّة»، لا إلى الأفراد الذين تتجسَّد تلك الحقيقة فيهم بشكل نسبىّ.

هنا يبدو القرآن كونيّا فى نظره إلى الإنسان والطبيعة والحياة والقيم، والشريعة وسائر موضوعاته، فهو غير مقيَّد فى أطر الزمان والمكان والإنسان، بل هو مطلق فى بنائيَّته ونظمه.

مصدّق لما بين يديه من كتاب، ومهيمن على الذكر بمراجعته ونقده وتنقيته، ومَيز كل ما أضافه الناس إليه عن الحق والصدق اللذين نزل بهما، ثم هيمنَ عليه هيمنة الحفظ الذى لا يسمح بالإضافة إليه مرة أخرى أو الحذف منه. وأنّه بخصائصه هذه التى ينفرد بها من «الإطلاق والاستيعاب والتجاوز والتصديق والهيمنة ومنهجيّته المعرفيّة»، كل أولئك خصائص جعلت منه كتابًا كونيّا لا ينحصر فى قوم أو زمان أو مكان. كما جعلت منه كتاب البشريّة الشامل العام الكامل، الذى يفسِّر بعضه بعضًا للمتدبِّرين، والذى يسَّره الله - تعالى - للذكر - للتالين المتذكرين.

والذى يستطيع أن يغوص إلى جواهره ولآلئه القادرون على الفهم العميق، والتحليل الدقيق ليصوغوا منه الخطاب العالمىّ القادر على معالجة المأزق الحضارىّ العالمىّ الذى يهدِّد الخليقة كلَّها.

والذين يوفقهم الله لاكتشاف «الرؤية الكونيّة القرآنيَّة» سوف يدركون بالأدلة القاطعة أنَّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم من الاتجاهات الوضعيّة - كلّها - مضافًا إليها التيارات اللّاهوتيَّة جميعها بتلك «الرؤية الكونيّة».

«فالوضعيَّة» قد ساقت الإنسان إما إلى «جدل الإنسان الذاتىّ» وإما إلى «جدل الطبيعة الجبرىّ»، وكلاهما يجرِّد الإنسان عن مقوِّماته الكونيّة؛ فإذ يؤدى «جدل الإنسان» إلى تفريغ المطلق الإنسانىّ ولا محدوديَّته فى العبثيَّة واللاانتماء والفرديَّة والليبراليّة يؤدى جدل الطبيعة إلى جبريّة وحتميَّة تستلب خصائص الكونيّة الإنسانيّة.

واللاّهوت قد ساق الإنسان إلى جبريَّة غيبيَّة أحاديّة حيث يستلب الغيب الإنسان والطبيعة معًا فيضيع الفارق بين المطلق والنسبى[26].

ثالثًا: لكى نتقدم بالقرآن إلى العالم ونتحدى الناس به نحن فى حاجة إلى مراجعة تراثنا فى علوم القرآن لتنقيته مما لحق به أو أضيف إليه، ومحاكمته إلى القرآن المجيد ذاته للتصديق عليه، والهيمنة على ما فيه وبعض هذه العلوم فى عصور إنتاجها برهنت على مدى عناية علمائنا المتقدمين بكل ما يتعلق بالقرآن المجيد. وبعضها الآن صار يشكل عبئاً على القرآن، وكثيراً ما يستخدمها خصوم القرآن لإثارة شىء من البلبلة فى صفوف المؤمنين الذين ليس لديهم معلومات كافية عن القرآن ـ مثل «فنون القراءات»، وتقسيم القراء أحوال الإسناد فيها إلى قراءة ورواية، وتقسيم القراءات إلى متواتر وآحاد وشاذ، فمثل هذه الأمور التى تداخلت فيها علوم الإسناد بعلوم القرآن ينبغى أن تحال إلى البحث

(٢٦) انظر العالمية الإسلامية الثانية/ محمد أبو القاسم حاج حمد (١/ ٥٠٢) ط ثانية بتقديمنا بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٦م..

الأكاديمى المتخصّص . ولا ينبغى أن يخرج القراء ولا دور النشر عن المصحف الإمام بحال، إذ لحسم مثل هذه القضايا كان المصحف الإمام، وتم الإجماع عليه وتعميمه على الأمّة .

ومثلها قضية حديث «الأحرف السبعة»، والمعرَّب والدخيل، فهذه أمور ينبغى أن لا تخرج عن دوائر البحث الأكاديمىّ المتعمِّق .

ومثلها بعض الأخبار المتعلقة بجمع القرآن وتدوينه وقضايا الناسخ والمنسوخ والتعارض والترجيح فكل تلك الأمور تندرج فى إطار تلك القضايا ذات الصبغة الأكاديمية . وكلّها يحتاج إلى مراجعة، وتقويم وحسم إذ أنّ هذه الأمور كما جرى تداولها فى الماضى واستمر، هى موضع استغلال للخصم، وفتنة للأبناء لا ينبغى أن تستمر أبوابها مشرعة أمام خصوم القرآن .

رابعا: إشاعة الدراسات المقارنة بين الكتب الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن وذلك بدراسة تاريخ كل منها، وطرق نقله وحفظه، والمقارنة بين مفاهيم وتصورات كل منها للدين وللألوهيّة والربوبيّة والنبوَّة والوحى والحياة الدنيا والآخرة والأمثال والقصص والتاريخ الإنسانىّ، وتصور كل منها للإنسان وللكون والمرأة والقيم والأخلاق وآثار كل منها فى أهم القضايا قديما وحديثا كالعلم والجزاء والعقاب، والتشريع العائلىّ والمجتمعىّ والجبر والاختيار وما إليها من قضايا أساسيَّة تناولتها تلك الكتب .

خامسا: العناية بدراسة القرآن بأشكال ميسَّرة تلاحظ فى تفاصيلها الأعمار والمستويات والجنس واختلاف البيئات وما إليها. مع شىء من العناية بتفسير المفردات القرآنيَّة ببعضها كما فعل الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن، ليكون القرآن نفسه المبيِّن لمعانيه، وتستقر المعانى القرآنيَّة ذاتها فى العقول، فتكون أعون على التأمُّل فيه.

سادسًا: تطوير مدارس «تحفيظ القرآن» بحيث تصبح مراكز لإيجاد إنسان القرآن، ولإحداث التنمية العقليّة والذهنيّة والنفسيّة بالقرآن، وتعليم الطلاب فيها تاريخ القرآن، والفنون التى ارتبطت به من كتابة وزخرفة، وتجويد، وخطوط بحيث توجد مجموعة من الفنون الأساسيَّة المتميزة بتأثير القرآن فى البيئات المسلمة ليس فيها أى مجال للشرك، ومن المفيد إجراء بعض المقارنات مع الكتب الأخرى فى هذا المجال: التوراة والإنجيل.

* * *

الخاتمة

وبعد، فهذه بعض ملامح سبيل «الخلاص الإنسانى بالقرآن» تنبِّه إلى ما بعدها، وتشير إلى غيرها، وتفتح أمام الباحثين السبيل لإنضاجها واستكمالها وإشاعتها، وإيجاد الوعى بها، لعل الله يهىء للبشريّة أمر رشد، وينقذها من معاناتها، ويهديها سبيل الرشد والهداية، فهو القادر على ذلك، والمرجَّى له. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

* الباقلانى، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣ هـ)، **الانتصار لنقل القرآن**، تحقيق محمد زغلول سلام. الإسكندرية: منشأة المعارف، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م - ٤٤٥ ص.

* الجوينى، إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله، **البرهان فى أصول الفقه**، تحقيق عبد العظيم الديب. المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٣، ١٩٩٢ م.

* الخضرى، محمد، **تاريخ التشريع الإسلامى**، القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٣٩ م - ٢٥٦ ص.

* الذهبى، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)، **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام**، تحقيق حسام الدين القدسى، دمشق: جامعة دمشق، ١٩٢٧ م.

* الرازى، أبو بكر فخر الدين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ)، **المحصول من علم أصول الفقه**، تحقيق طه جابر فياض العلوانى، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٩ م، ٥ مج.

* السلمى، عياض، **استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة على القواعد الأصولية**، الرياض، ١٤١٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

* السيوطى، جلال الدين (ت ٩١١ هـ)، **تاريخ الخلفاء: أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبى بكر الصديق إلى عهد المؤلف**، القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م، ٣٥١ ص.

* طاش كبرى زادة، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ)، **مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم**، تحقيق عبد الوهاب أبو النور، وكامل بكرى، القاهرة: دار الكتب الحديثة، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م، ٣ مج.

* العلوانى، طه جابر فياض، **أبعاد غائبة عن فكر وممارسات الحركات الإسلامية**، فرجينيا: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٦٦ م، ١٠٩ ص (سلسلة المحاضرات: ٢)العلوانى، طه جابر فياض، الجمع بين القراءتين: قراءة الوحى وقراءة الكون، القاهرة: المعهد العالمى للفكر الإسلامى، ١٩٩٦ م، (سلسلة إسلامية المعرفة: ٢٢).

* الفارابى، أبو نصر محمد بن طرخان، **إحصاء العلوم**، تحقيق عثمان أمين، ط ٢، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م.

* القنوجى، صديق بن حسن (ت ١٣٠٧ هـ)، **أبجد العلوم**، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ١٩٧٨ م، ٣ مج.

* يفوت، سالم، «تصنيف العلوم عند ابن حزم» **مجلة دراسات عربية**، س ١٩: ع.

***

التعريف بالمؤلف

طه جابر العلوانى

* من مواليد العراق عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م .
* ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .
* ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر عام ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .
* دكتوراه أصول الفقه ، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م .
* عضو مجمع الفقه الإسلامى الدولى بجدة .
* شارك فى تأسيس المعهد العالمى للفكر الإسلامى فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
* رئيس المجلس الفقهى لأمريكا الشمالية .
* رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية G.SISS فى الولايات المتحدة .

أعماله المنشورة

١ ـ تحقيق كتاب «المحصول من علم أصول الفقه» لفخر الدين الرازى، ستة مجلدات.

٢ ـ الاجتهاد والتقليد فى الإسلام.

٣ ـ أصول الفقه الإسلامى: منهج بحث ومعرفة.

٤ ـ التعددية: أصول ومراجعات بين الاستتباع والإبداع.

٥ ـ الأزمة الفكرية ومناهج التغيير.

٦ ـ أدب الاختلاف فى الإسلام.

٧ ـ إسلامية المعرفة بين الأمس واليوم.

٨ ـ حاكمية القرآن.

٩ ـ الجمع بين القراءتين.

١٠ ـ مقدمة فى إسلامية المعرفة.

١١ ـ إصلاح الفكر الإسلامى.

١٢ ـ نحو منهجيّة معرفية قرآنية.

١٣ ـ مقاصد الشريعة.

١٤ ـ القيم العليا الحاكمة: التوحيد.

رقم الإيداع ٢٢٥٥٣/ ٢٠٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. - 977-09-1476-2